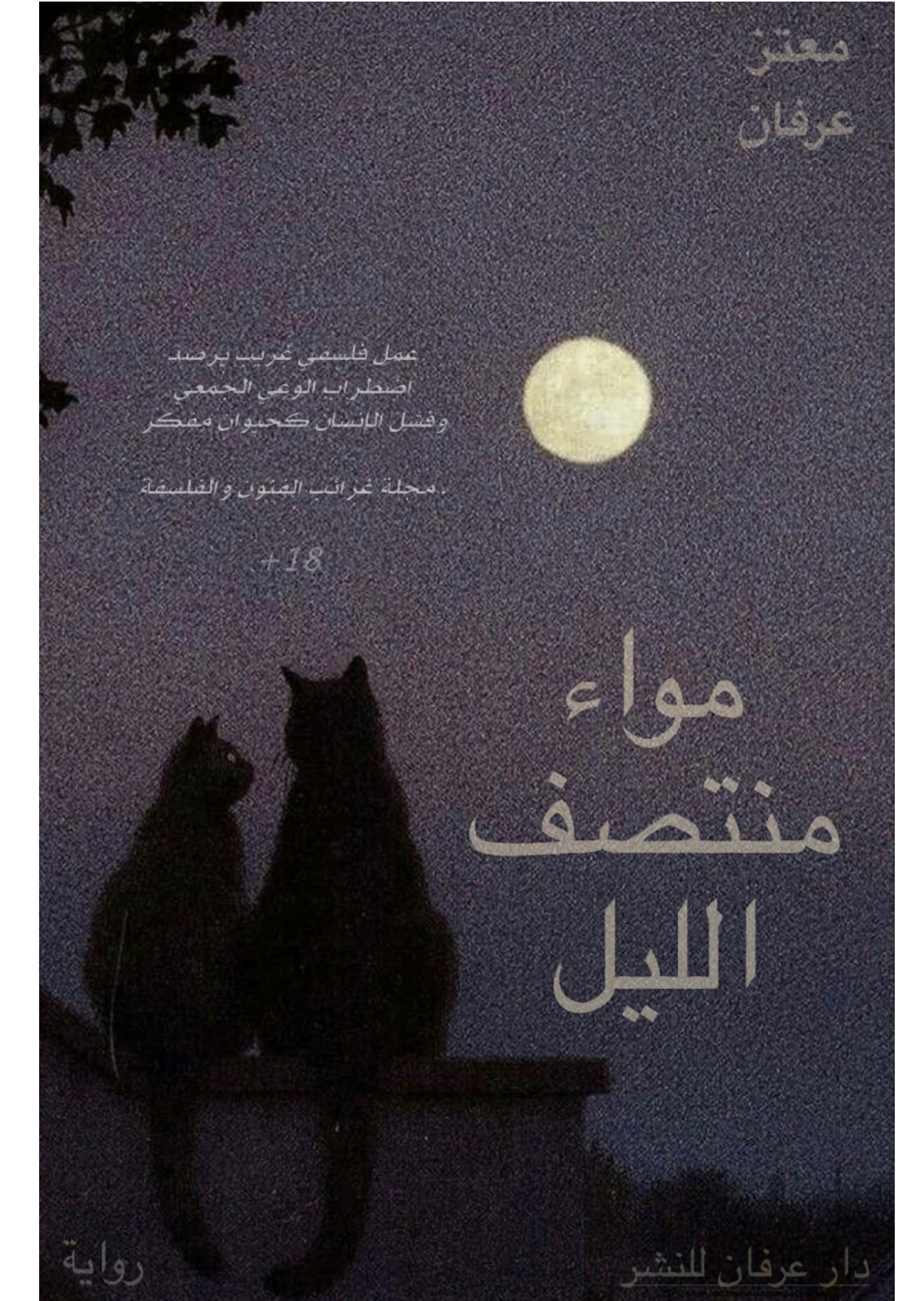


معتز
عرفان
عمل فلسفي غريب يرصد
اضطراب الوعي الجمعي
وفشل الانسان كحيوان مفكر
مجلة غرائب الفنون و الفلسفة.
+18
مواء
منتصف
الليل
رواية
دار عرفان للنشر

رواية مواء منتصف الليل

معتز عرفان

رواية نفسية فلسفية

مواء منتصف الليل

دار عرفان للنشر

+18

تحذير : يتضمن العمل مشاهد غريبة

الجزء الأول من الرواية
(مواء وعبث)

-١-

لم يكن أمر المواء مفهوما بالنسبة إلي، كان غامضا، كان عجيبا، كانوا يجتمعون في منتصف كل ليلة ليشرعوا في المواء بشكل غريب، وكانت الهررة تشاركهم فعلهم، لكن العجب قد نال منها لأنها وجدت أناسا يفعلون ما لا يناسبهم و لا يتماشى مع طبيعتهم، كما أن الفعل نفسه كان يستمر لما يقارب النصف ساعة في منتصف كل ليلة، وهو ما أثار الدهشة في الأرجاء وفي كل الأنحاء.

إنه لأمر غريب أن يصدر المواء من بشر، إنه لأمر عجيب أن يكون الفعل منافيا للطبيعة مخالفا للفطرة ملاعبا للذهن محاولا أن يستعير ما لا يستعار وأن يلبس ما لا يلبس وأن يفعل ما لا يجب أن يفعل.

كنت جالسا في زاوية مظلمة من زوايا الغرفة التي قطنت فيها مؤخرا، تلك الغرفة التي حصلت عليها بعد عناد وبعد مناوشات كثيرة من أجل أن يكون الثمن مناسبا، وقد عزمت علي الجلوس هناك لمدة لا تزيد عن شهر بعد أن تم استدعائي من قبل السلطات كي أحلل تلك الظاهرة الغريبة التي كان أبناء الحي يتشاركون فيها في منتصف كل ليلة كما قلت مسبقا، وقد عجزت الحكومة عن ردعهم، كما أنها لم تتدخل بقوة لأنه لم يكن هناك ضرر واضح قد ينجم عما يفعلون أو مما يقدمون علي فعله فيما يخص الإعدادات والتجمعات الغريبة التي كانت تأخذ من الشارع الممتد محلا لها.

كنت جالسا في الزاوية حينما حل على أحدهم وأرغمني على النزول معه إلى الشارع كي أشارك الجماعة مواءهم العجيب، وقد نزلت

مجبرا وشاركتهم مرغما، وكان القمر يلاعب الجميع ويسخر منهم دون هوادة ضاحكا متعجبا من شأنهم ومن شأن ما لحق بهم.

لقد عرفت بالفيلسوف الهجين، عرفني آخرون بالمحلل المجنون، بينما أشار إلى الكثيرون واصفين إياي بالنفساني الغامض، وقد حققت كتاباتي في مجال النفس رواجا كبيرا، إلا إنني كنت متواضعا على طول الطريق، لأن لحظات النصر تتطلب الهدوء وإلا انقلب الحال وتحول النصر إلى هزيمة نكراء.

لما أكن مدركا لأمر المواء في البداية، كان أمره غريبا هجينا، وعندما يبدو الأمر هجينا لإنسان هجين، يتحول مع الوقت إلي أمر مفهوم، فالغريب قادر علي فهم الغريب لكن بعد مرور الوقت، وحينها يصبح التآلف أمرا ممكنا، وكل ما هو عجيب يفهمه كل من هو عجيب، وبهذه الصورة تتوافق الأمور، ولكن هل تحمل كلماتي نوعا من الصواب؟

ربما تحمل كلماتي الصواب بين حوافها، ولكن من الممكن أن تكون بعيدة كل البعد عن الصواب وعن كل ما يخصه ويحوطه ويشمله ويلاعبه.

إن التشابه أمر غير موجود، التشابه موجود في المثالية وما يخصها، موجود في عقول السذج، فلا يوجد تشابه بين شيئين في هذا الوجود، حتي ولو ظهر علي السطح، حتي ولو ظهر علي السطح، حتي ولو ظهر علي السطح، فالتشابه ملفوظ، وعندما أتحدث عن هذه النقطة، فإنني أتحدث عن الدواخل، أتحدث عما يلاعب الأذهان، فمن الممكن أن نري توأمين متشابهين لكن من الصعب أن نري ما يلاعب

دواخلهما، وبالفعل، ما يلاعب أحدهما يختلف عما يلاعب الآخر، وهو ما يمثل سنة الوجود فيما يخص الكثير من النقاط، ولهذا أدركت مع الوقت أن كوني هجينا لا يمنحني القدرة علي أن أفهم الفعل الهجين بشكل تام، فالفهم ممكن، لكنه ليس بتام، ليس بكامل، فالنواقص تلاعب كل شيء، وما يتم إكماله هو في حقيقة الأمر لم يكمل، لكنه قد كبت وعوض بالتجاهل والتغافل ومحاولة التبرير والتفسير بأي شكل من الأشكال.

إن العبور يتطلب المرور، وهو مرور يتصل بالجسر، لا بالاستقرار، لكن الفهم مطلوب، لأن الفهم يسهل العبور، لكن مع الوقت، يتحول الفهم إلي ضباب، وبهذه الصورة يصيب الإنسان ما لم يتوقعه، حيث أنه يهاجم بالكثير من التحديات التي لم تكن في الحسبان، ومحاولته بلوغ المنطقية بشكل دائم تضمحل مع الوقت، لأن المنطقية تغيب في لحظة ما، وحينها يتساءل حيال كل المحاولات السابقة الخاصة بفهم الوجود، لكن الغرض يتمثل في إثبات حقيقة تشتت الإنسان وعجزه عن القيادة، بل إن التصارع بين البشر فيما يخص الدفة وطريقة القيادة بمثابة الإثبات فيما يخص الكلمات، ولو أنني قد تتبعت المواء بشكل دائم لأصبت بالجنون، لكنني كنت أتجاهل في الكثير من الأوقات، فالأنين يتطلب التجاهل حتي يمكننا المرور، ولو ركزنا مع ألم الوجود، لأصبنا بالإحباط وصعوبة التكيف، وهو ما ينبه إلي ضرورة السعي نحو بلوغ ما يهدئ الأذهان، ولكن هل من الممكن لكل إنسان أن يصل إلي المرغوب؟ وهل من الممكن أن يستقر ولو للحظة ما؟

إن أمر المواء لا يتصل بأنين واضح، وربما يمثل محاولة تعويضية، لكنني قد عزمت علي أن أفهم طبيعة بعض أبناء الحي ممن

يتشاركون في المواء، فقد كانوا يتشاركون في لهفة، وكانوا يقدمون على الفعل في إصرار وتكرار، رغم غياب المنطقية والبديهية والفكر السليم والعقل الحكيم، لكننا أحيانا قد نقدم على فعل أفعال ساذجة لمجرد أفكار غريبة وربما نقدم على فعل مجنون وندرك لاحقا ما حدث، وهو ما يمثل العقل اللاواعي الذي تسبب في الكثير من الأفعال الغريبة على مر العصور، لكن الغرابة أدركت بالواعي بعد أن اتخذت محلا معتمدة على اللاواعي.

فحدوث الفعل الغريب غير المنطقي متصل بالعقل اللاواعي، أما صفة الغرابة، فإنها تدرك لاحقا بالعقل الواعي، وعندما نتأمل الشرور سنجدها متصلة بالعقل اللاواعي في الكثير من الأحيان، كما أنها تتصل بالغرور، ولا يعد الأمر تبريرا لكنه يعد رصدا قاصرا بشكل من الأشكال، لأن الحقيقة أكبر من كل ذلك، وهو ما يدركه الأنام مع الوقت، بداية من فترة بلوغ الشبان ووصولا إلى العجز والتلاشي وإدراك بعض أجزاء الحقيقة، بعض الأجزاء الضئيلة في حقيقة الأمر.

إن الظل يلاعب الإنسان لفترة طويلة للغاية، يلاعبه في إصرار، ولو تمكن من التفريغ والترويح والإيجابية، وصل إلى المطلوب وتجنب صراعات الظل ومتاهاته التي تقحم الإنسان في لذات زائلة وصراعات مقبلة بصورة لاحقة، وقد يتجاهل البعض ما أقول، لكنه يدركه مع الوقت، ومن لا يدركه مغيب، لكنه يستيقظ في يوم ما على هرج عال ليدرك الحقيقة التي لا مناص من بلوغها وإدراكها والتعرف إلى طياتها المتعددة.

يستقبح العقل الكثير من الأفعال، يستهجن أيضا العديد من الأمور، لكن أمر المواء ليس بمحل استهجان أو استقباح، وهو ما أثار الذهول وحقق درجات عالية من القبول، إلا أن التجمع كان يثير القلق في بعض الأحيان، خاصة من قبل السلطات، لأن التجمعات قد تفضي إلي الفوضى والصراعات، وهو ما أثبته التاريخ علي مدار الزمان، ولو أن التجمع كان ذا غرض لاتضح، لكن التجمع كان مقتصرا علي المواء في ظل وجود القمر، ومشاركة الهررة، والتلاعب بالنغمات والدرجات، وهو ما جعلني أصب فضولي علي هذه الظاهرة صبا، وألاعب ذهني في هذا الاتجاه وحده، وفي النهاية توصلت إلي حقيقة الأمر، لكن بشكل جزئي سأفصح عنه لاحقا أيها الأعزاء.

-٢-

شرعت أتلاعب بالأفكار عوضا عن تلاعبها بي، كنت أتنقل بينها و لا أبحث عن حل لها، كنت أتجاهلها كما يتجاهل العربيد آثامه وكما يتجاهل المسكين مآسيه وكما تتجاهل القطة قططها إذا أخذت بعيدا عنها وكما يتجاهل الشيخ الذي اقترب آجله آمال الصغار ويدعم هيمنة البهلوان وكما يتجاهل الساذج حبيبته التي عشقها من أجل مؤخرة وكما يتجاهل المنغلق تنوع الثقافات، وقد توصلت بينما كنت جالسا بأحد أركان الغرفة إلى حقيقة أن الإنسان قد ولج التجربة ليدرك ضعفه بعد قوته وليفهم سذاجته بعد غروره وليعلم أنه لا يمثل سوي لحظة بل وسيحاسب علي هذه اللحظة، وهو ما شملني برعشة لكن الرعشة تحولت إلي خيال آثم حينما جاءتني فتاة خلاسية كنت أحبها في الزمن الفائت وزارت خيالي البارح وأشعلت شغفي النائم وحطمت عواطفي تحطيما حتي ظننت أنني قد هلكت وقذف بي من أعلي جرف غريب حوطته سماء ضبابية لا تكاد تعرف استقرارا.

كانت المضاجعة شرسة، كانت خبيثة، كانت في محل غير محلها، وقد أمسكت بوجهها ومنحتها قبلات عديدة، قبلات حارة، قبلات ستنسي كما سينسي كل شيء، لكن أمر الخيال يختلف عن الواقع، ففي الخيال يقبع التحكم، وفي الواقع لا يوجد سوي الاضطراب وقدرته علي درء التحكم، حتي وإن وجد، وهو ما أحدث خللا في الخيال وأنزلني مجددا إلي أرض الواقع، فوجدت نفسي قاطنا الأريكة، كنت أشاهد فيلما غريبا، كان يتحدث عن رجل ساذج كان يجري وراء النساء، وقد قتل في نهاية المطاف بالسم علي يد واحدة

منهن، وقد أعددت الشاي التايلاندي بعدها، ونزلت إلي الشارع لأتجول لعلني أخرج الشحنات السلبية قدر الإمكان.

وجدت الهررة في كل مكان، كانت أنواعها متنوعة متعددة لا تكاد تعرف ثباتا، وقد وجدت قطا يلاعبني من بعيد، وقد جاءني باكيا مصدرا مواء لا يعرف انقطاعا، وقد عطفت عليه ومنحته بعضا من الماء، لكنه صمم على المكوث إلى جانبي، لكنني رغبت في المغادرة لعلني أكمل جولتي التي كان وقتها غير مناسب على ما يبدو.

بعد الجولة، عدت إلي الشقة، وقد زارت الخبطات بابها، بمجرد أن ولجتها، ففتحت الباب وكنت في عجلة من أمري، فوجدت شابة يافعة برداء قصير رغم الشتاء، وقد أخبرتني عن أنها تقطن في الدور العلوي، فرحبت بها لكني استعجبت لأمرها وسألت عن سر دقاتها، فأخبرتني بأنها كانت تحب الرفقة، كما أنها قد وجدت نفسها وحيدة حينها فنزلت لتسألني عن إمكانية مشاركتي الليلة علي أن تكون هناك حدود بيننا، فأخبرتها بأنني أرحب بها لكن المجتمع لا يسمح بمثل هذه الأمور، ورغم ذلك من الممكن الولوج، كما هو الحال في المجتمعات المنافقة كما تعلمون.

كانت رفيعة علويا عريضة سفليا، كان شعرها متموجا وكان فكها مدببا وكانت ذات عيون متلاعبة، عيون لعوب، عيون في كل مكان، عيون تلاعبني في المرآة، اللعنة، أين أنا؟ من أين جئت؟ وإلي أين أذهب؟

إن فستانها الأحمر قد انخلع، وها هي تقف أمامي عارية، لكني لا أجرؤ على الاقتراب منها، فهناك ما يحول بيني وبينها، وقد انغلق التلفاز من تلقاء نفسه، وقد حاولت التهامها، فرأيت نفسي ذئبا مفترسا يظهر انعكاسه في المرآة، إنني لست بذئب، فكيف صارت هيئتي هكذا؟ وكيف ولجت دائرة المتنافسين دون إرادة مني؟

اللعنة صبت علي، والوهم نال مني، وها هي تقف أمامي كاشفة عن نهديها، لكنها لن تمثل سوي لحظة ستنسي وسيبقي بعض آثارها لتنال مني مستقبلا، اللعنة، إن الحمقى كثيرون، وها أنا قد صرت منهم، لكني سرعان ما تراجعت وأبطلت غروري، فهدأ فؤادي، وقد أدركت اللحظة وخرجت من دائرة الخيال، فوجدت الفتاة تجلس أمامي بردائها تشاهد معي التلفاز الذي ظننت أنه قد أغلق، لكن المرآة ليست موجودة، فمن أين جاءت؟ وإلي أين ذهبت؟

مرآة الحياة، تلك المرآة التي رصدت الكثيرين والكثيرات على مدار الزمان، فأحدثت شروخا في التجربة وجعلت الجميع يستعجل الأيام، لكن الأيام مثلت الحياة، ولم يكن الناس على دراية بذلك، وبين رغبة التقدم إلى الأمام ورغبة الإمساك باللحظة، شتت أمر البشر، وأدركوا حجمهم الطبيعي بالنسبة إلى الوجود.

عندما تلحس العسل وتتبعه بقبلة يصبح للقبلة طعم، فالقبلة في حد ذاتها لا تملك طعما لكنها تملك دفعة كيميائية لحظية، ورغم ذلك تجد البشر يبالغون في شأن القبلات، رغم غياب الطعم الفعلي، وهكذا هو الحال مع كل شيء في حقيقة الأمر، فمن الضروري أن يضاف شيء إلى شيء ومن الضروري أن تضاف لمسة إلى لمسة، ومن الضروري أن يحافظ المرء على استمرار الحلقة، وهو ما يعد مضنيا

مع الوقت في كل المجالات، لكن الإرهاق يصاحب اللذة كما يصاحب كل شيء، وهو ما يمثل أمرا معروفا.

لقد أحضرت علبة مربي جوز الهند وبعض الفطير، وقدمت إلى الفتاة، فرحبت، وجلست تأكل كاشفة عن فخذيها تلاعبني بعينيها العسليتين تبتسم تارة وتلوي بوزها تارة أخري، فتعجبت مما رأيت، لأن أفعالها لم تناسب الجلسة وقد غادرت مطرحها ولمقتني، فزدت دهشة وتراجعت إلى الوراء.

عادت إلى مكانها، أخبرتني بأنها لم تحب نظراتي، فقد كانت كنظرات متحرش، وهمت بالرحيل، لكني سرعان ما وضحت لها موقفي وأخبرتها بألا تزعل، وقد قدمت لها وردة جميلة كنوع من الاعتذار ووضحت لها أنني كنت سرحانا لا أكثر ولا أقل، فقد كانت الأفكار تستغرقني رغم ادعائي بهيمنتي عليها.

صعدت تهز جسدها كما هو الحال مع فتيات العصر، وقد أغلقت الباب جيدا ودخلت للنوم، لكني بمجرد أن رقدت، سمعت المواء يهز المنطقة، كان مواء لا يعرف انقطاعا، وقد تجاوز المدة المعهودة، وقد رأيت القمر يرمقني من بعيد عبر الشباك الزجاجي، وقد حاولت النوم فعجزت، لكني سرعان ما تذكرت مهمتي فبرحت مطرحي، ونزلت إلى الأسفل لأري ما وصلت إليه الأوضاع في هذا الحي الذي بدا لي مسكونا بشيء غير مفهوم.

كان الناس كثيرين، كانوا في كل مكان، كان الازدحام لا يطاق، وكانت الهررة تحوط المنطقة، وقد حاولت الانسلال بين الجمهور فعجزت، وقد جاءني أحدهم وطلب مني أن أشاركهم ما كانوا يفعلون، فأخبرته بأنني قد اعتدت ألا أفعل ما لا يفهم، ورغم ذلك انتهي بي الحال متبعا القطيع، فلا مهرب من القطيع، ولا مهرب مما يمليه عليك أبواك، ولا مهرب مما تمليه عليك نفسك، لكن المهرب يكمن في التمرد في الكثير من الأحيان، والتمرد ليس بسيء على الدوام، فمن الممكن أن تستفيد، ورغم ذلك، افعلها أو لا تفعلها، ستندم في كلتا الحالتين، وما الدنيا إلا جسر مضجج بالهباء.

شاركتهم أفعالهم، كنت أطلق المواء كالمجنون، وكانت الهررة تغمض عيونها في أحيان كثيرة وتقهقه، كانت تقهقه كنتيجة لأفعالنا، فقد شاركناها طبيعتها وأجبرنا على العودة إلى ما كنا عليه قبل تمردنا، فالتمرد ضريبته الهلاك، والغرور مآله إلى الفناء، وكم من رجل ظن نفسه أسدا فانتهي به الحال قطا.

ها هي تغمض أعينها وتقهقه، تقهقه بلا هوادة، تسخر منا، تضحك كثيرا، تضحك بصوت عال، فهي أكثر ذكاء، لأنها فهمت الأمر منذ البداية، وخضعت خضوعا كليا، فكان خضوعها مختوما بختم الصمت، وكان طريقها مصحوبا بصحبة السكينة والهدوء.

ورغم ذلك لم تفر من الغريزة الأساسية، شأنها شأن ستون في فيلمها، وشأن المراهقين والمراهقات في سن التمرد والهياج، لكن الحكمة حينما تحل يصبح الأمر محاطا بالرونق، الرونق الخاص، الرونق

الذي لا مهرب من بلوغه، خاصة حينما تتغير الظروف وتظهر بعض أجزاء الحقيقة.

لقد سألت صاحب محل عن رأيه، فأخبرني بأنه لم يشارك المجموعة أفعالها بأي شكل من الأشكال، كما أنه لم يحاول الاقتراب حتى لا يلبس، كما أنه قد فهم بعض الأمور لاحقا، لكن الفهم تمثل في كلمة واحدة، كلمة قالها لي ثم انصرف ليتابع أعماله وأشغاله.

قال لي: إنها حالة من التعويض يا سيدي، حالة من التكفير، لا أكثر ولا أقل!

-٤-

إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل، الهدوء يخيم، البرودة تهيمن، الروب يمنحني الدفء، مشروب الليمون والزنجبيل يلاعب حلقي، أشم النعناع وتتأرجح خياشيمي، أحاول النوم فأعجز، لا أحتاج الميلاتونين والجابا، لا أحتاج الكاموميل والنعناع، لا أحتاج سوي الهدوء، الهدوء وتأجيل التفكير إلي الصباح، نعم، إنها عادة العظماء، تلك العادة المتمثلة في تأخير الأفكار، تجاهل ما يجب تجاهله، عدم الاستعجال، البرود، التخلص من عبء العاطفة، وطلب السكون عبر سرعة المرور.

يقدم الدماغ المتاهات، ليحلها، أضحك كثيرا، نعم، إنه يفعل ذلك، تخيل، يقدم المتاهات، ليحلها، وقد تسيطر وساوس على عقلك فتصبح المتاهات أكثر تعقيدا، فهناك متاهات وهناك غضب وهناك جدالات، وكل هذا لا طائل منه، لأن الوعي قد أقحم في شيء غير مفهوم، وشيء غير مفيد، ولكن هل أقحم نفسه أم أٌقحم؟

الهيرمينوطيقا قد تساعدك، قد تساعدك في حصد التأويلات، ولكن ما فائدة التأويلات إذا كان عقلك لن يفارقها أبدا؟ لن يفارقها؟ نعم، لن يفارق المتاهات، لأنه سيظل مهووسا بالتأويلات أيها اللعين!

ما فائدة البحث عن حل لمشكلة؟ إذا كانت هناك مشكلة أخري ستظهر بعد اختفاء الأولي وثالثة ستظهر بعد اختفاء الثانية؟

أضحك كثيرا، أشرب بعضا من الزنجبيل، أتبعه بمشروب اللاجوندي، إنه مدر أيها اللعين، كيف ستنام؟ ستستيقظ كل لحظة لتدخل الحمام!

لقد أمسكت بكتاب عن الغنوصية، وبدأت في التنقل بين صفحاته، لكني لم أجد الأمر مثيرا، فأغلقته، وأمسكت برواية (قبل أن تبرد القهوة) فلم أقرأ سوي صفحتين، وقد شعرت بضجر شديد تسرب إلى عروقي، وقد اختلط الضجر بالبرد فأحسست باللخبطة، فصممت على إغلاق شبابيك عقلي ونمت في سبات.

-٥-

الشمس تقترب من الشباك، أشعر بالضوء يلاعبني، يلاعب عيني، يقترب مني، أستيقظ نشطا، أعد القهوة الفيتنامية، أتناول بعضا من البولفورون بالأوبي، تتنقل أسناني بين بعض كسرات الخبز المحمص، أمسك بشوكولاتة ضخمة وألتهمها، إنها دارك تشوكلت، لذيذة، لذيذة، لذيذة!

الفنانة بينلوبي كروز على التلفاز، لكني مشغول بأمر المنطقة، أنزل بسرعة متدثرا بالجاكت البافر ومرتديا الساعة الذهبية التي منحتني إياها حبيبتي التي تخلت عني منذ سنتين من أجل ساذج آخر، وها أنا أحاور الكثيرين محاولا التعرف إلى أسرار المنطقة الغريبة.

إنني الفيلسوف الهجين، اقتربوا أيها الأصدقاء، اقتربوا مني، لا تخافوا، إنني هنا من أجلكم، إنني لست بضدكم، إنني منسجم معكم وأحاول الحفاظ على هذا الانسجام، فالبراعة لا تكمن في الانسجام لكن في الحفاظ على الانسجام، الحفاظ على الانسجام، الحفاظ على الانسجام.

جاءني أحدهم، أخبرني بأنه متوجس لوجودي، سألني عن مهامي، أخبرني بأنني عاجز عن فهم الأمر، لأنه داخلي قبل أن يكون خارجيا، فالأمور الداخلية لا تفهم بسهولة، والأمور الخارجية قد تكون محيرة متنكرة في معظم الأحيان، وقد اقترب مني بشكل أكبر ووضح لي أن ما يحدث لا يخصني، ولن يخصني إلا إذا كنت قريبا من الإله، إلا إذا كنت أحاول التقرب في حقيقة الأمر.

لم أفهم ما كان يحاول إيصاله، أحسست بأن الشيطان قد حال بيني وبين الفهم، الشيطان الخبيث المتنكر الذي كثيرا ما داهمنا وكثيرا ما تسبب في ندمنا على أشياء لم نفهم سر انخراطنا فيها، لكن الأمر يخصنا، ومن الضروري ألا نلقي باللوم على الآخرين، ففي بلاد الواق واق سردت قصص لم نفهمها لكننا تتبعنها لسبب لم يكن في الحساب ولم يخطر على البال.

الأمر أشبه بانجذاب الذكر ناحية النهد، وانجذاب القط نحو القطة، ورغبة الإيجو في الظهور، ورغبة الإنسان في الكثير من الأمور التي لا يفهم سر انجذابه لها، إنه المغناطيس الكيميائي الكامن بداخلنا، إنه عالم الأركيتايبس الذي يلاعب عقولنا اللاواعية، إنها المتاهة أيها الأصدقاء!

لقد فوت الفيلم، فقد كانت سلمي حايك موجودة أيضا، أسرع بالعودة إلي الشقة، لكنني سرعان ما أجد الفتاة اللعوب واقفة أمامي، تلج الشقة معي، تجلس لتشاركني المشاهدة، يمر الوقت سريعا، نتناول بعض الطعام، يدق جرس الباب، إنها العجوز التي تقطن في الدور السفلي، تخبرنا عن حقيقة انزعاجها من الصوت العالي ثم تنزل إلي شقتها، نخفض الصوت، نتابع المشاهدة، نتبادل القبلات دون إدراك، نستمر في التبادل، نتوقف فجأة، نكمل المشاهدة، تصعد الفتاة إلي شقتها، أجلب كتابا وأبدأ في القراءة، أستمر، أستمر، أستمر، أتنقل بين الصفحات دون توقف، ولكن هناك ما يخطر ببالي فيتلف اللحظة.

أتذكر حينما كنت صغيرا، حينما كنت في العشرينات من العمر، أتذكر الفتاة التي أحببتها لدرجة الهيام، كنت أشعر بالسعادة

الشديدة حينما كانت تقترب مني، لكنها رحلت في النهاية، رحلت بعد كل هذه المشاعر وبعد كل هذه القبلات، فالحلوى حلوة إذا ظلت في الفم، لكنها بمجرد أن تغادره لا نحس بها، نعم، هذه هي المشكلة، ولهذا ستجد الكثير من الذكور يتذكرون حبيباتهم اللاتي أثرن فيهم في البدايات وتزوجن غيرهم في النهايات بنوع من الحسرة، والأمر مطبق على الجنس الآخر أيضا، إلا أن التعميم مدحض في حقيقة الأمر.

كانت خفيفة رشيقة جميلة، كانت ذات حس فكاهي ممتاز، لكنها غادرت لأنها لم تكن قادرة على المزيد من الانتظار، كما أن رجلا جادا قد زارها فصار منظري سيئا وقتها وصرت كالبهلوان.

أعود مجددا إلى الكتاب، أتركه، أجلب رواية تتحدث عن بهلوان قام ببناء سيرك من أجل جمهور فقير، فلم يزره أحد، وكان السيرك يقدم العروض دون جمهور، وهو ما أثار الفضول.

يدق جرس الباب، إنها اللعوب مجددا، تقترب مني، نمارس الفحشاء كالمجانين، العربيد والعربيدة، هكذا هو الحال في هذه الأيام، انظروا إلي العربيد أيها اللعناء، ها هو ينزل إلى البهائمية بقدميه، بدلا من التحرر والوصول إلي الجمال والروحانية، لكني سرعان ما أكبت الأمر وأتراجع إلى الوراء، وتفعل هي المثل.

نتشارك البوب كورن بعد أن نثرنا عليه بعضا من بودر فرانكس، نضحك متعجبين مما حدث، نتبادل بعض القبلات ونكتفي بذلك، لكني أخبرها بأن الأمر لا يصح، فتخبرني بأنه لا يصح فعلا، ورغم ذلك نكمل ما بدأنا دون توقف، وها هو ظل الشموع يلاعبنا، والعيون

ترصدنا في المرآة، والمطر يهطل في الخارج دون توقف، والتلفاز يعرض فيلما قديما لبراندو بصورة جلية تعرض انعكاساتها على المرآة، مرآة العيون، مرآة الحياة، مرآة السيرك الذي نعيش فيه، ونوهم أنفسنا بأنه الواقع.

إن كنت لا تخشي شيئا ستتحرك كالأهوج، هكذا علمني أبي، ولكن عندما كبرت أدركت أن العشوائية قد تحقق المكاسب في الكثير من الأحيان، المغامرة في حد ذاتها قد تخلق فرصا لم يكن من الممكن إتاحتها إلا إذا أقحمت في التجربة، ولكن ما هي هيئة هذه المكاسب؟ هل هي مادية؟ هل هي معنوية؟ هل من الممكن أن نلمسها وأن نحسها وأن نشعر بها في كل لحظة؟

كنت أتنقل بين هذه الأفكار، بينما كنت ممددا فوق الأريكة محاولا أن أستشعر حالتي وتجربتي وموقفي الحالي لا الماضي أو القادم.

كان هناك فيلم قديم لجاكي شان على التلفاز، كان غريبا عفا عليه الزمان، وقد حل المساء، وكان الملل قد تسلل إلى الأرجاء، كما أن انقطاعي للاهتمام بشأن الحي دون شئون أخري قد سمح بتسلل الحيرة إلى قلبي، ففي سن معينة من الضروري أن نشغل أنفسنا بعدة أشياء حتى لا نمل وحتى لا نقع فريسة لدوامات الأفكار المتناهية، تلك الدوامات التي تفشخ العقول وتدخل البشر في صراعات.

عدت مجددا إلي شأن المكاسب، تأملتها، رأيت أن المكاسب وهمية في حقيقة الأمر، خاصة المكاسب الشهوانية والمادية، لكن عندما تأملت شأن المكاسب الروحانية والعاطفية، ارتقيت، أحسست بأن هناك شرارة قد لاعبت ذهني، فعندما يمنحك الإله التجربة الروحانية المتكاملة، ستصبح ذا شأن آخر، وستكتشف أن الهدف من الحياة تمثل في عدم التمسك باللحظات والمادة، أن الهدف من الحياة تمثل

في الارتقاء الروحي والتخلص بالتطهر، وقد تتعجب من كلماتي ولا تفهمها في وقتك هذا لكن في لحظة معينة ستدرك ما أقصد، تلك اللحظة التي يمر بها كل إنسان، ويفهمها وقتها وفقا لدرجة وعيه.

سمعت خبطات على الباب، هرعت، فتحته، وجدت العجوز تقف أمامي كاشفة عن وجه متبسم، لكنه متأرجح في حقيقة الأمر، متأرجح بين التبسم والعبوس، وعندما رحبت بها، رحبت بي في المقابل، لكنها لم تدخل الشقة وظلت ماكثة أمامها، وقد أخبرتني عن استيائها الشديد من الهرج الذي يحدث في منتصف كل ليلة، رغم أنها كانت منسجمة معه في البداية.

أخبرتها بأنني عاجز عن إيقافه، فليس من شأني أن أوقفه أو أن أضع له حدا، وقد وضحت أنني أعمل على تحليل هذه الظاهرة وأحاول أن أصل إلى الكثير من المفاتيح التي تخصها، وقد أخبرتني بأنها تعرف الكثير عنها لكنها صممت على ألا تخبرني، وقد طلبت منها مفتاحا فرفضت وأخبرتني بأن السر من الضروري ألا يفشي، وعندما أخبرتها بأنها تهول الأمور وأنه من المستحيل أن أصل إلى حل إذا لم تساعدني، أخبرتني بأن أذهب إلى الجحيم، فتراجعت إلى الوراء وأغلقت الباب.

عندما تطلب المساعدة من الآخرين تصبح في موضع يكشف عن نفسه سريعا، بمعني أن المساعدة إذا منحت صرت في موضع قوة، وإذا لم تمنح صرت في موضع ضعف، لكن عندما تحول موقفي إلي الضعف والحرج، وجب علي ألا أتهاون في شأني، فأغلقت بابي وأرحت نفسي، لكن الراحة التي هيمنت علي المشهد لم تكن راحة في

حقيقة الأمر، فقد ساورتني الكثير من الشكوك حيال العجوز وقد رأيت بأم عيني أشياء كان من الضروري ألا أراها، فقد كانت اللعوب تنزل إلي العجوز وكانت العجوز تصعد إلي اللعوب، وقد أحسست بأن هناك علاقة سحاقية بينهما، لكني تغافلت لأن الأمر لا يخصني، لكن الشق الذي خصني تمثل في إمكانية أن يكون للعجوز شأن بالقضية موضع التناول، وهو ما أثار الحمية في صدري وأشعرني بضرورة أن ألاحقها دون أن أمثل عبئا عليها.

لقد صعدت إلى شقة اللعوب في مرة من المرات، ففتحت الباب وكانت واقفة أمامي بحمالة صدرها، فضحكت وطلبت منها أن تغطي نفسها، لكنها أخبرتني بأنه لا يوجد حرج، فالمراهقات صرن يجوبن الشوارع بالكروبات والملابس القصيرة، كما أن السفر يعلمنا أن ثقافة الارتداء غير مقيدة وأن هناك أمما تحب الاحتشام وأخري لا تحب ذلك، وهو الحال بالنسبة إلى الأفراد، فأخبرتها بأننا مجتمع محافظ قد شرع في الانهيار، ولهذا وجب علينا المحافظة قدر الإمكان، فضحكت كثيرا وضحكت أيضا، وقد ولجت الشقة، فرحبت بي وقدمت لي كوب الشاي بالفواكه، وعندما جلست أحسست بشيء غريب، فقد كان هناك كلب يلعب دون توقف، فحضنته ورحبت به، كان بومرينيان من النوع المميز، وقد جلس يلاعبني وكنت ألاعبه أيضا، وها هي الفتاة تجلس أمامي وتشاركنا ما نفعل، وقد كان الموقف هائلا.

لكن ما لاحظته تمثل في وجود بعض ملابس العجوز عند الفتاة، بعض الملابس التي تخص النساء اللاتي هرمن، لكني لم أسألها حينها عن أي شيء وتجاهلت ما رأيت، وقد دعمت موقفي في أكثر من مرة حينما كنت أزورها لنناقش مسألة الحي، دعمته عبر تأمل

بعض الأمور والنشاطات والاتصالات الغريبة التي كانت تجري بينها وبين العجوز، تلك العجوز التي أحرجتني ولم أتوقع منها ما فعلت.

عندما تتأمل الضباب الذي يخيم في بعض الأيام، تشعر بالحيرة حيال الموقف العام، حيال موقف البشر، الخوف يتصل بالضباب، ضبابية الموقف تجعلنا نرتجف، ولكننا نعتاد كل هذه الجلبة مع الوقت فنتجاهلها، أو بمعني أصح نتماشى معها فنتحرك دون اهتمام زائد، وبهذه الصورة تجري حيوات البشر في حقيقة الأمر، فبعد أن كانوا يتابعون كل خطوة وكل تفصيل، ها هم يقللون التفكير حيال الكثير من الأمور، وها هم يهتمون ببعض الأمور التي يستوعبها عقلهم، وإلا أصيبوا بالجنون، ورغم ذلك قد يعود الأمر إلي التقدم في السن بكل بساطة، وقد يعود إلي الإجهاد الخلوي الذي كثيرا ما نتجاهله.

عندما تفلت نسمة معطرة من الجنة وتزورنا، نرحب بها ونسعد بقدومها، لكن هذه النسمة، قد لا تكون من الجنة، وقد تكون مسلكا سريعا للجحيم، وهو ما أدركته لاحقا مع موقف الفتاة، لكنني سأكشف لكم عن حقيقتها لاحقا، فقد كانت تمتعني بينما كنت أقوم بمهمتي هناك، كانت بمثابة الفاصل، لكنني اكتشفت في النهاية شيئا لم يكن في الحسبان.

سأخبركم بالكثير، ولكن هل ترغبون حقا في التعرف إلى تفاصيل هذه القصة؟ هل ترغبون حقا في التعرف إلى تفاصيل قصة صغيرة مقارنة بقصص الكون التي لا تحصي؟ هل يمكنكم أن تدركوا عدد البشر الذين زاروا التجربة ورحلوا في وقت ما عنها؟

هل يمكنكم أن تلاحظوا حجم التنوع والتغير الذي يسيطر على تجربتنا؟

إن التجربة ليست كما تعتقدون، إنها تجربة غريبة عجيبة، نسلكها معتقدين أننا نفك الشفرات لنكتشف في النهاية أننا لم نفك أي شفرة، لنكتشف في النهاية أننا لم نكن سوي فئران تجارب أقحمها المجتمع في دوائر مفرغة لا طائل منها.

ولكن لا مناص من اللف في الدوائر، فالعقل يحتاجها، وقد صمم من أجلها، ورغم ذلك فشل البشر في استخدامه جيدا، وتحركوا بأهوائهم وأفكارهم المجنونة من أجل أشياء عبثية وكيمياء غير مفهومة، وهو ما يدركه الكثيرون مع التقدم إلى الأمام.

لكن موقفي حيال الحي وحيال التجمع الليلي، كان موقفا هاما بالنسبة إلى عقلي، كان موقفا لا مناص من التعامل معه ومحاولة حل شفراته، لأنه قد وكل إلى من قبل السلطات، بمعني أنه كان أمرا رسميا، ولهذا كانت المتاهة إجبارية لا اختيارية، وما نظنه اختياريا قد يكون إجباريا قد تنكر في حقيقة الأمر لكنه قد كشف عن ماهيته بصورة لاحقة.

القمر يلاعب الشباك الزجاجي، وها أنا أجلس أمامه أتأمله وأغمز له، فيبادلني الغمزات، غمزات كثيرة، غمزات الحبيبة، لكن الغمزات يقل أثرها مع الوقت، وتقل هي أيضا، تختفي، تتلاشي، تصبح ضربا من الماضي، تصبح نوعا من التحلل، التحلل الذي يهيمن علي كل شيء، وفي صغري، قرأت كتابا عن التحلل لفيلسوف صديق، وقد تناول الكثير من الأمور التي تخص تحللنا وتلاشينا مع الوقت، نعم،

كل شيء يتحلل مع الوقت، فالمستقبل هو الموت والتحلل، والموت بمثابة الجسر إلي العالم الآخر بكل تأكيد، ذلك العالم الذي لا نفهمه، كما أننا لم نفهم العالم الذي نعيشه أيضا في حقيقة الأمر، ولهذا عندما تجد شابا صغيرا يحب ويدرس ويتعلم ويسافر ويعتقد أن تجربته تمثل الوجود، من الضروري أن تضحك سريعا، لأنه لا يختلف عن ذنب سحلية مقطوع ينبض وحيدا وبلا انقطاع، كما يقول بيسوا!

إن الحقيقة مخيفة، لكنها جميلة أيضا، وهو ما ندركه مع الوقت، ولكن الإدراك يحتاج إلى التمهل لا التعجل، ولو أنك قد نظرت إلى التجربة نظرة تجريدية لأدركت أنها عبء، عبء كبير، ورغم ذلك تمثل اللذات والمشروبات والأطعمة والشهوات مهدئا للبشر، لكنه مهدئ مؤقت، وهو ما تدركه مع التقدم في السن في حقيقة الأمر.

إن المهدئ الأكبر والأهم يتمثل في الروحانية والتقرب إلى الإله، لأنه متصل بالتطور والتدرج واتباع الفلسفة الحياتية المتكاملة القادرة على المسايرة لا على الانقطاع والعجز والتحسر على غياب اللذة، وهو ما يدركه العقل الحكيم، أما العقل التائه، فإنني أشفق عليه وأشفق على من يدعمه ويسايره ويتماشى معه بأي شكل من الأشكال.

اللذة عندما تكون بين يديك، قد تفكر في إمكانية اختفائها في أي لحظة، فتفشل لحظتك، وإذا تجاهلت هذه المشاعر والأفكار بينما تكون بين يديك، ستزورك لاحقا لا محالة، والتأرجح بين المشاعر الإيجابية والسلبية أمر لا مناص منه، ولكن الإنسان يدرك أن الملذات المادية والروحانية والمعنوية ملذات ذوات أوقات، وكما

نعلم، فلكل شيء وقت، وعندما تستعجل الأمور تهلك وحينما تحسها بطيئة ترهق، ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال على الدوام.

لو أنك كنت مكاني لتعاملت مع تجربتي بنفس طريقة تعاملي معها، ولو أنني كنت مكانك لتعاملت مع تجربتك بنفس طريقة تعاملك معها، ألا يجعل هذا من التجربة أمرا مؤثرا؟

وبالتالي، لا يمكنك أن تحكم علي ولا يمكنني أن أحكم عليك، وعندما تأملت موقف العجوز واللعوب، أدركت أنني أشغل نفسي بهما أكثر من اللازم، وأنني بهذه الصورة أبعد نفسي عن محور القضية وأساس الأمر وموضع التركيز، ولهذا عزمت على أن أهتم بشأن الظاهرة بشكل أكبر دون أن أنسى أمر المرأتين، بمعنى أنني قد قررت أن أركز على الظاهرة بشكل رئيسي وعلى المرأتين بشكل فرعي.

عزمت على أن أراقبهما دون أن يكون التركيز هناك، لأنني شعرت بأن هناك صلة بينهما وبين الأمر، وهو ما ظهرت مؤشراته وعلاماته مع الوقت، ورغم ذلك كان هناك ما يمنعني من المواصلة.

لكن عندما نمنع من المواصلة، من الضروري أن نكافح الظروف، علينا أن نكافح الظروف بشكل مستمر، وحتى ولو أن الظروف قد انتصرت في النهاية، يكفينا شرف المحاولة، وستنتصر الظروف في النهاية في حقيقة الأمر، أضحك كثيرا، فقد أقحمت عبارة غريبة بين الكلمات، ولكن عندما تكون هناك أرض خربة، لا تتوقع أنها ستثمر وستقدم إليك الثمرات أيضا، وهو ما يشاع في بعض الحالات

التي يمكننا أن نصف أصحابها بالسذج، أصحابها الذين تخيلوها وانتظروها.

حل موعد النوم، وقد تجاهلت الظاهرة والمواء، لكنني استيقظت بينما كان قد أوشك على الانتهاء، فنزلت، وقد صمموا على مشاركتي، فشاركت، وعندما عدت إلى الشقة، وجدت قطة صغيرة تنتظرني أمام الباب كاشفة عن عينين باكيتين.

رحبت بالقطة، أطعمتها، قدمت لها اللبن، قدمت لها الماء، ابتسمت لي فابتسمت، أتذكر قطتي الصغيرة في الماضي حينما كانت تهرع تجاهي عندما كنت أمسك بعلبة الزبادي، وكانت تشاركني إياها دون توقف، كانت نشطة، لكن هذه القطة أكثر نشاطا، فها هي تجوب الشقة بلا هوادة، وقد طلبت منها الهدوء فهدأت وخلدت إلي النوم فخلدت، وكما تعلمون، فإن القطط تحب النوم، وتنام كثيرا، والنوم بمثابة الملاذ بالنسبة لها كما هو الحال بالنسبة إلينا، لكن المرهقين والعاملين لا يستمتعون إلا بالقليل من النوم، وهو ما يؤثر في صحتهم بصورة لاحقة ويصيبهم بمشاكل صحية، ورغم ذلك لكل سن مدة نوم تناسبها.

لقد حلمت ليلتها بأن القطة قد انقلبت إلي امرأة ساحرة هام وجداني بها وتحركت تجاهها، كانت ساحرة لامعة، كانت أشبه بفنانة جاءت من بلدة آسيوية بعيدة وشرعت في العزف علي القيثارة دون توقف، وقد ظهرت الكثيرات من الفتيات اللاتي بدأن في الغناء وعملن علي تحميمها وإعدادها من أجل العشاء، وقد كانت المناسبة سعيدة جميلة، لكن وجهها سرعان ما تحول إلي وجه مخيف أرعبني، أرعبني بشدة، فقد تحولت إلي العجوز التي تخيم في الأسفل، وقد استيقظت من نومي مفزوعا فوجدت القطة الصغيرة في حضني، القطة البيضاء، تلك القطة التي زارتني لتؤنسني، ورغم ذلك من الضروري تطعيمها منعا للأمراض.

لكل لذة ضريبة ومجهود، لا يوجد شيء في هذا العالم دون مقابل، لكل شيء ثمن، وعندما ندفع الثمن علينا أن نكون مقتنعين لأن

الخدمة المقدمة في المقابل من اختيارنا ونحن من سعينا نحوها، ولهذا من الضروري ألا نتبرم بعد اللذة، لأن بعد اللذة لا يوجد سوي الإرهاق، بعدها، لا نجد سوي الضريبة، وكي تجالسك القطة لفترة طويلة، من الضروري أن تبذل جهدا كي تظل معك، وإلا سترحل لتبحث عمن يرعاها ويهتم بشأنها، والأمر متبادل أيضا في الكثير من الأحيان، خاصة إذا عمدنا إلي المجازات والأوهام، وهو ما يدركه كل إنسان، كل إنسان واقعي وسليم، كل إنسان يعي الكثير من أجزاء التجربة ويفهم أنها لا تسير سوي علي هذا المنوال.

في مرة من المرات، في أحد الشوارع، وجدت رجلا يتحرك ممسكا بكلب، وقد تبرز الكلب، فقام الرجل بإزالة القذارة، وهو ما يوضح أن الضريبة لا مهرب منها، ولهذا من الضروري أن أدرك أن مصاحبة اللعوب خطرة، مصاحبة سأدفع ثمنها لاحقا، ولا أعقد الأمور لكنني أتحدث فيما يخص المعقول، بمعني أن الضريبة ستدفع مع هذه الفتاة أو مع غيرها، فلا مهرب من ذلك ولا مهرب من خوار الطاقة وتغير الأوضاع والظروف، ولهذا من الضروري ألا نجري وراء اللذة، لكن من الضروري أن نبحث عن كل الطرق التي تجنبنا الألم وتقلل من وطأة العبء الوجودي قدر الإمكان، ولعل الموت يمثل عبرة بالنسبة للكثيرين ممن ضلوا الطريق وتحركوا كالمجانين، عبدة الكيمياء وعبدة الشهوات، فلا مناص من تغير موقفهم في يوم من الأيام ولا مهرب من مواجهة الحقيقة والإحساس بالضياع العاطفي والروحاني بعد فوات الآوان.

لقد بادلتني القطة العاطفة بشكل كبير، وقد عدت إلى النوم، فاستمتعت بنوم ممتاز، وقد وصلت تجربتي إلى القمة بعد أن حل الدفء علي وأحسست بالكثير من المشاعر الإيجابية بينما كنت

نائما، حيث زارني حلم مميز، حلم ضم الكثيرين من عائلتي، وكان الاحتفال ممتازا، ولكن جاءني أحدهم وقال لي أن أجلي قد اقترب، فتحول الفرح إلى غضب وتبرم وحزن، ورغم ذلك شملتني السعادة لسبب لم يكن في الحسبان.

هل تعرف التنقل بين العواطف؟ هل تعرف التنقل غير العادي بين المشاعر؟ هل تعرف اللذة التي تصاحب الألم والألم الذي يصاحب اللذة؟ هل تعرف المجهود الذي يصاحب اللذة؟ هل تعرف الإحساسات المتنوعة عندما تتقلب بغتة؟ هل تعرف عندما يكون التقلب بداخل المقياس الطبيعي لا المقياس المرضي؟ هل تعرف كل هذا؟

إن كنت تعرف كل هذا، فإنك واهم، لأن الأمر أكبر من كل هذا، الأمر أكبر من مجموعة عواطف، الأمر لا يفهم بشكل كامل، لأن الكيمياء تلاعب البشر بعوامل داخلية ولا تقتصر على التأثيرات الخارجية فحسب، ولهذا من الضروري ألا نتسارع حينما نحاول أن نفهم غموض عواطفنا، حينما نحاول أن نفك شفرات العواطف ونحولها إلى أفكار.

-٨-

حل الصباح، أقف أمام الشباك الزجاجي، أتأمل المشهد العام، تدور بي رأسي، أسقط بغتة، أعود إلى أرض الواقع، أشعر بأن الوعي قد عاد، نعم، لقد عاد، يبدو أن السكر قد انخفض بشدة، أشرب بعض العصير، أحاول أن أستعيد طاقتي معتمدا علي العسل والمشروبات وكل ما يمكن أن يمد الدماغ بالحيوية والانتعاش.

كثيرا ما تأملت الوعي وغيابه، الوعي في حاجة إلى تأمل، الوعي موضع دراسة واهتمام من قبل الكثير من المفكرين والعلماء، فالوعي يدخل الفرد إلى التجربة ويخرجه منها، نعم، إننا لا نمثل سوي حالة من الوعي، الوعي الفردي والوعي الجمعي، والوعي الفردي يدخل صاحبه إلى التجربة ويقحمه في الكثير من المتاهات، وإن لم توجد المتاهات، اختلقها وبدأ في البحث عن حلول لها، وهو ما يثير الضحكات في الأرجاء، فالوهم يصنع بواسطتنا، وعبرنا تتم مسايرته، ومن خلالنا يتابع ويستمر قدر الإمكان حتى يمحقه الزمان.

عندما تتأمل أبعاد الوعي، تجد أنه يتأثر بالداخل والخارج، بمعني أن العوامل الخارجية والمتغيرات التي تحوطنا تؤثر فيه، لكنه في الوقت عينه قد يتأثر بالكثير من العوامل الداخلية، وهو ما يشير إلي قوة الداخل، عكس ما يشاع، فالحقيقة تخبرنا بأن الدواخل أهم من الخارج، والقدرة علي تنظيم الوعي الداخلي قدر الإمكان بمثابة المفتاح للكثير من التطورات النفسية والفكرية، ورغم ذلك لا يدرك الكمال فيما يخص عملية التنظيم، لأنني أصر علي عشوائية الوعي البشري، وهو ما جعل بعض الفلاسفة مثل فلاسفة الزن

يلجؤون إلي الاهتمام بالتعامل مع الأفكار وفقا لطرق عديدة، من بينها ألا نهتم كثيرا بها، فمن الضروري أن نفتح الباب لها كي تمر وعلينا ألا نقدم الشاي من أجلها، وبهذه الصورة تغادرنا سريعا خاصة حينما تكون مُريرة، فالأفكار في حاجة إلي التمرير في الكثير من الأحيان، الأفكار المكررة بشكل رئيسي، وهو ما يقلل من الوساوس وصراعات الوعي بشكل من الأشكال، ولا يمثل الأمر حلا سريعا لكنه بمثابة التمرين، ذلك التمرين الذي يحتاج إلي التركيز والانتباه، لكنه في الوقت عينه يمثل نوعا من التغافل والتجاهل، وكما يقول شكسبير، من الضروري أن نتغافل كثيرا عن العديد من الأمور كي تتحرك حيواتنا إلي الأمام، وهو ما أتفق معه حياله، لأنه يمثل المفتاح للكثير من التطورات الداخلية والخارجية أيضا.

لقد ألفت كتابا عن الوعي في صغري، لكنه لم يجد النجاح المطلوب، وقد مثل عملا قصيرا لم يكن في المتناول بالنسبة إلى الكثيرين، لكنه تناول العديد من الأمور التي خصت الوعي، كما أنه قد عمد إلى تجارب سريرية وأفكار محورية ودراسات أجريت من قبل العديد من العلماء النفسيين، ولا يمكنني أن أؤكد على الوصول إلى شيء جاد فيما يخص الوعي البشري، لكن من الممكن أن نتحدث عن حقيقة الوصول إلى نظريات، نظريات يمكنها أن تساعدنا في فهم الوعي قدر الإمكان، الوعي الفردي والوعي الجمعي دون انفصال.

الوعي الفردي وطريقة تفاعله مع الوعي الجمعي، موضع دراسة واهتمام، نعم، فكيف يتفاعل مع الجمعي؟ وكيف يتواصل الجمعي كي يبني صورة كلية يحاول الفردي مطاردتها والتزين بها؟

إن الأمر ليس بالبسيط، لكنه رغم ذلك قد يكون معقدا يسهل تبسيطه، تبسيطه بالتجاهل و التخلص من التركيز، بمعني أن الوعي في حد ذاته إذا فقد، تحولت التجربة إلي هباء، فالوعي يمثل الأساس، الأساس فيما يخص ولوج الفرد ضمن التجربة، فالتجربة موجودة لا تتلاشي، لكن الوعي نفسه هو ما يمكن أن يتلاشى، ولهذا أضحك كثيرا حينما يحدثني أحدهم عن تأثيره في العالم، فالعالم موجود والإنسان عرضة للتلاشي، وهو ما يشير إلي عبثية التمرد وعبثية الصراعات البشرية، لكن من المستحيل أن تمر التجربة دون متاهات، كما وضحت مسبقا، فلو غابت اختلقها الوعي ليسايرها، وقد يصاب المرء بالوساوس كنوع من التعويض أو الولوج، الولوج الخاص بحل المعطيات ومحاولة التكيف والتأقلم قدر الإمكان، وهو ما يشير إلي أهمية الحراك حتي ولو كان عبثيا، ورغم ذلك يصبح المعني موجودا عبر العمد إلي مفهوم الحساب.

يحوي الوعي الكثير من المعطيات والمداخل، وقد تشكل بمساعدة الجينات والبيئة والتربية والنشأة الأولي، كما أن اختلاف المدخلات الأولية تجعل من أنواع الوعي موضعا للدراسة، فالوعي يختلف بين البشر لأن المدخلات مختلفة، والتعرض الأولي يختلف بين البشر، فمن ينشأ في بيئة ذات سمات معينة، قد يهاجم وعيه من قبل بيئة أخري ذات سمات مختلفة، وهو ما يحدث الحراك عبر عملية الدفع والاحتكاك.

التنوع جزء رئيسي عندما يتعلق الأمر بالوجود، وكلما كان الوعي قادرا على استيعاب الألوان العديدة، أصبح أكثر اتساعا وأكثر قدرة على الفهم والتعامل والمرونة والتحرك والمواصلة، ورغم ذلك من الضروري ألا يتخلى عن الأساسيات، تلك الأساسيات التي اتصلت

بالمدخلات المهمة، وبهذه الصورة يستقبل الجديد ويتقبله دون أن يتخلى عن البدايات، تلك البدايات التي مثلت الأساس في حقيقة الأمر.

ها أنا أذهب باتجاه السرير وأرقد، إنني عاجز عن النزول إلي الأسفل، وها هي الأفكار تستمر في التسلل إلي ذهني، لكني قد أجهدت بسببها، ولا أرغب في التعرف إلي المزيد منها، كما أنني لا أرغب في النزول كما قلت مجددا، إنني أرغب في العودة إلي النوم والهروب، الهروب من العالم ومشاغله، ولا أعرف كيف وصل بي الأمر إلي هذه الصورة، فقد كنت نشطا في صغري وكان الفضول يحركني تجاه كل شيء، تجاه العلم والدين والفن والمدن والنساء والخير والشر، تجاه كل شيء بكل ما تحمله الكلمات من معان، ورغم ذلك، ها أنا أشعر بالكسل والرغبة في التقوقع، لكن من الضروري أن أجابه السن ومن الضروري أن أتخلص من كسلي ونومي، إنني أرغب في ذلك، ولكن كي تتحول الرغبات إلي حقائق، من الضروري الإصرار والمواصلة بكل تأكيد.

-٩-

لقد صممت علي النزول، وقد نزلت، جابهت الكسل ونزلت، لكنني قضيت اليوم في التنقل بين أناس الحي أسألهم عن الظاهرة الغريبة، ولم أجد إجابات شافية، لم أجد ما يرضي فضولي، وكان الموقف عصيبا في حقيقة الأمر، لأن الكثيرين منهم تعاملوا معي بنوع من القسوة، وهو أمر لم أتوقعه، وشيء لم أضعه في الحسبان بأي شكل من الأشكال، وقد شعرت بالحرج لنفسي فغادرت، وقد صممت علي ألا أعود إلي هذا الحي من جديد، لكن السلطات قد طلبت مني القدوم مجددا فعدت، عدت مرغما، عدت رغم عدم اقتناعي بالأمر، فقد شعرت بأن هذه الظاهرة لم تقدم لي شيئا جديدا، كما أنني قد أحسست بأنها لا تمثل سوي طقس لا يحتاج التحليل والاهتمام.

لازمني شبح العبث كثيرا حيالها، شعرت بعدم جدوى وجودي، لكن طلب السلطات لا يمكن أن يرفض، ولهذا قررت أن أعود إلى المسرح، مسرح الظاهرة، على أن أمنحه مدة لا تزيد عن شهر، نعم، شهر من التحليل والبحث يكفي هذا الأمر، ولكن هل من الممكن حقا أن أصل إلى شيء مهم يخص هذه الحالة؟ هل من الممكن أن نصل إلى شيء مقنع تماما في هذا العالم؟ هل من الممكن أن يساعدني الوعي في حل رموز الأمر وفك شفراته؟ هل من الممكن أن تظهر النتيجة سريعا دون عناء ودون أن يشبه الأمر حركة سيزيف؟

أتمنى ذلك، أتمنى ذلك، أتمنى ذلك، بكل ما تحمله الكلمات من معان، أتمنى أن أمشط شعر فتاة جميلة دون أن يتعقد، دون أن تتكون عقد تحول بيني وبين ما يجري، ولكن هل كل الأمنيات تتحقق؟ هل كل الأفكار تترجم؟ هل كل المشاكل تحل؟

آرقتني الظاهرة، وآرقني العبث الذي لازمني. ولكن هل لازمني العبث طيلة حياتي؟ فقد شعرت بأنه كان يلاحقني طوال الوقت، تسلل إلي أنفاسي ولم أجد مهربا منه، كنت أري شبحه كل يوم في الصباح حينما كنت متجها إلي المدرسة وبعد ذلك إلي الكلية وبعد ذلك إلي العمل، ظننته وسواسا، لكنه لم يكن، ظننه شبحا، لكنه لم يكن، تغافلت عن ماهيته وتأقلمت معه حتي صار صديقي، ورغم ذلك لم يمنع حركتي ولم يحد من تطوري، فقد كنت أتطور بسرعة وباستمرار، وعندما تتأمل الهررة، تشعر بأنها تقهقه حينما ترانا نتحرك في الصباح، تتحرك في عبثية لتنهي الأمر، بينما نحاول نحن أن نخلق المعني، ورغم ذلك لا يوجد المعني سوي عبر العودة والحساب.

لقد شرعت في البحث عن حلول وتفسيرات للظاهرة من جديد، لكن شبح العبث كان يلازمني وكنت أشعر بعدم الجدوى حيال الأمر، ورغم ذلك كان الأمر يكشف عن نوع من الإثارة بين الحين والآخر، وكانت اللعوب تسليني وتمنحني نوعا من المداعبة العبثية التي لا تضيف سوي الذنوب إذا تعمقنا في النظر والتأمل، وهو ما جعلني أحاول الحد من الأمر والعودة إلى الرشد والسعي نحو الخلاص، وقد تمكنت من ذلك في بعض الأحيان.

ها هي تقف أمامي، ترقص من أجلي مرتدية بدلة رقص هائلة، لكن جسدها يغمز لي ويطلب مني شيئا لا أفهمه، هل تعرفون العقل الذكوري الذي يرغب في الحصول على شيء لا يفهمه؟ شيء من الجسد الأنثوي، إنه يريد أن يخترقه، لكنه في الوقت عينه لا يحصل على ما يريد حتى بعد اختراقه، إنها حالة من التعويض لا أكثر ولا أقل، حالة من الخلل، حالة من الاعتقاد الساذج بأن الأنثى بمثابة

الملجأ والخلاص، رغم أنها لا تمثل سوى شيء عادي للغاية، والحال نفسه بالنسبة إلى الرجل، لكن التكاثر يلاعبنا باللذة، وعندما نأتي إلى الأمر عدة مرات، تصبح هناك احتمالية كبيرة لحدوث المطلوب، حتى ولو توافرت الوقاية.

لكن الحلال لا يقارن، والخير يكمن في الرجل الناصح، حتى ولو روج المجتمع للفسوق والأهواء، لأن الحقيقة ستبقي صامدة أبد الدهر مهما ظهرت الكثير من المتغيرات، ولكن كثيرا ما يتحدث البشر عن خطورة الطعام المتوافر، ورغم ذلك يأكلون!

أخبرها بأن تكف عما تفعل، تكف، تتراجع، تتبرم، تشعر بنوع من الغضب، تخبرني بأنها ستعود إلى شقتها، فأخبرها بأنني لا أمانع، تجري حزينة، تجري بعد أن أحرجتها وأخرجت كلمات لم تكن لائقة، ورغم ذلك فقد صالحتها بصورة لاحقة وتمنيت لها نوما هنيئا.

إنها الواحدة بعد منتصف الليل، بعد انتهاء المواء، بعد نزوح الهررة التي كانت تصدر المواء بصورة لا تعرف الانقطاع، كانت تصدره بينما كان البشر يفعلون المثل بشكل غريب كالمعتاد، وقد زاد عددهم وزاد عدد الهررة أيضا.

أتذكر القطة الصغيرة التي كنت ألاعبها في صغري، كنت أقدم لها الماء واللبن وكل شيء، كما هو الحال مع القطة التي تجلس أمامي الآن، أعتقد أن هناك بعض الفروق بكل تأكيد، لكن الأمر لا يختلف من حيث الكيفية، كيفية التعامل وكيفية إخراج الدواخل وتحويلها إلى واقع، فالسيناريو مكرر، لكن العناصر مختلفة، وهو شأن كل شيء في هذه الحياة.

أنت تعتقد أن الكثير من الأمور مختلفة لأنها تبدو كذلك من الخارج، لكن طريقة تفاعلك معها على المستوي الداخلي، مكررة، وكل ما تفعله يتمثل في التجاهل لتقدم علي التجربة وتكررها بأي شكل من الأشكال محاولا أن تغير العناصر، لكن بعد انقضاء الأمور، تكتشف في نهاية المطاف الوحدة والتجانس بين الأمور، حتي ولو اختلفت الأشكال والأحجام والألوان، لأن التجربة داخلية قبل أن تكون خارجية، ولأن التفعيل يتصل بالدواخل والتكرار حتي ولو اختلف الخارج، ورغم ذلك لا مناص من مسايرة الخارج ومحاولة التجديد من أجل التقدم إلي الأمام.

إن هذه القطة جميلة للغاية، لكنني سأعطيها لشخص يهتم بها، شخص يكون جديرا بالثقة، وقد قدمتها إلي صديق فأخذها واعتني بها ولم أسمع عنها لاحقا، وقد اهتممت بشأن الظاهرة وقدمت المجهود الوفير من أجلها وسهرت كثيرا محاولا متابعة ما يحدث عبر الشباك، وكنت أنزل إلى الأسفل وأشاركهم أفعالهم في الكثير من الأحيان، وهو ما ساعدني في التوصل إلى بعض الأمور قدر الإمكان.

التجربة العملية تختلف عن النظرية، فالكلمات لا تخص الواقع بأي شكل من الأشكال، ولهذا لم أكتف بدراسة الماورائيات والتعرف إلى الأيديولوجيات المختلفة التي تخص هذه الحالات، لكنني صممت على النزول والتسلل بين الحاضرين والتعرف إلى أسرارهم والوصول إلى الكثير من النقاط التي تخص أصولهم وأفكارهم وعقائدهم، وقد توصلت إلى أن المشاركين في الظاهرة مختلفون من حيث الكثير من النقاط الديموجرافية، وهو ما ساعدني بشكل ما.

التطور الخاص بالظاهرة كان ملحوظا، وزيادة الأعداد كان أمرا جديرا بالاهتمام، كما أنه كان من السهل بالنسبة لي أن ألاحظ مشاركة النساء بأعداد كبيرة، وقد كنت أضحك كثيرا حينما كانت القطط تحاول أن ترفع أصواتها لتغطي علي أصوات البشر، وكأن الأمر قد تحول إلي عراك أو صراع بين الحيوان والحيوان الناطق، وهو ما كان يسبب الضحكات بالنسبة إلي الحاضرين في بعض الأحيان أيضا، كما أنني قد لاحظت أنواع القطط وأشكالها المختلفة، وهو ما أضاف لمسة فنية رائعة للموقف، حيث أن الأمر يشبه الوقوف أمام الكثيرات من الجميلات، الجميلات مختلفات البشرة، الجميلات اللعوبات، اللعنة، إنه خيالي المنحرف، خيالي الذي لا مناص من التخلص منه في يوم من الأيام.

-١٠-

في أمسية غريبة، كنت جالسا أتأمل السقف، كنت أتأمله بينما كان الملل يأكلني، فأمسكت بكتاب يتحدث عن العبث والعمل، وتنقلت بين صفحاته لعلني أصل إلى ما يمكن الوصول إليه.

كان فلسفيا ذا صبغة دينية جلية، وقد انبلج محتواه حينما وصلت إلى الصفحة العشرين، وقد تحدث عن حقيقة أن العمل مهم لكن وجود الإنسان لا يمثل فارقا مهما بالنسبة إلى الوجود في حد ذاته، بمعني أن العنصر البشري شأنه شأن كل شيء على سطح الكوكب، لكن الحساب يضفي المعني على التجربة، وبهذه الصورة تكون التجربة في حد ذاتها عبثية، لكن العمل الصالح المتمثل في السعي السليم يمثل اللمسة القادرة على منحها نوعا من البريق، ورغم ذلك قد يطفأ هذا البريق في أي لحظة.

يتحدث الدين عن حقيقة أن الدنيا لعب ولهو لكن في نفس الوقت يدرأ العبث عبر الاعتماد علي مفهوم الحساب، وبهذه الصورة تكون الخلقة قد تمت من أجل الرجوع والحساب بشكل رئيسي، كما أن التجربة مبنية علي التطهر بالتخلص، فالشاب الذي يلاحق الفتيات بسيارته مطالب بأن يتطهر ويستقيم، والفتاة التي تصطاد الرجال مطالبة بذلك أيضا، والرجل الذي يسرق مطالب بأن يكف عما يفعل، والقاتل مطالب بأن يتوب، والفاسد مطالب بأن يستقيم، وهكذا، ورغم ذلك تقوم التجربة في حد ذاتها علي التدرج، بمعني أن البشر درجات، كما أن أكثرهم تقوي واستقامة أكثرهم قوة واقترابا ومكانة، وبهذه الصورة يكون الأمر عادلا، وفي الوقت عينه تمثل الرحمة الإلهية المفتاح.

انتقلت بعد ذلك إلى كتاب يتحدث عن حقيقة أن الفساق يعانون كثيرا في وقت ما، حيث أن الهلوسات تلاحقهم والشكوك تطاردهم حيال بناتهم وزوجاتهم وبنات عائلتهم، كما أنهم يشعرون باضطراب شديد بعد أن تنضب مصادر اللذة وبعد أن يصلوا إلى جذور المتعة، تلك الجذور المطلية بطعم الألم، لأن التأرجح بين الألم واللذة، أمر لا مهرب منه.

ها هو كتاب آخر يتأملني وأتأمله، إنه كتاب يتحدث عن الوعي والوجود، فالوعي يمثل العنصر الزائر، ورغم ذلك يعتقد بأنه قادر علي تغيير الوجود، وهو ما يثير الضحكات في الأرجاء، ولهذا يعمد هذا الكتاب إلى التحدث عن الكثير من الحقائق التي تخبر الإنسان بحجمه الحقيقي وكونه أداة لا أكثر ولا أقل.

ها هو جرس الباب يدق، إنها اللعوب، تتقدم إلى الأمام، تجلس معي، نشاهد التلفاز، تخبرني بأنها تري أنني لا أحقق أي إنجازات فيما يخص العمل الذي كلفت به، فأخبرها بأنني أحاول الوصول إلى ما يفيد، وأوضح لها أن الأمر صعب، كما أنه ليس باليسير أن يصل المرء إلى النتائج فيما يخص أمرا غير مفهوم بالنسبة إلى الكثير من العلماء والمفكرين.

إنني أحاول أن أحدثها عن حجم المهمة التي وكلت إلى لعلني أخبرها بعظمتي وأهميتي في هذا المجتمع، إنني أفعل ما يفعله الشباب الصغار حينما يعملون ويظهرون عظمة أعمالهم وأهميتها، رغم أنهم يكونون حينها في بداية المشوار، حقا، لو كان الإيجو رجلا لقتلته.

تقترب مني، تجلس عن يميني، تقبلني فأقبلها، نتبادل القبلات، نحتسي بعضا من عصير العنب الفوار. إنه عنب من إسبانيا، لا من إيطاليا، من إسبانيا، لا من إيطاليا، اللعنة، لا أعرف، ولكن لا يهم، فما يهم يتمثل في الدفء واللذة الناجمة عن العنب، عن طعم العنب، ذلك الطعم السلس اللذيذ الذي يمنح الدماغ دفعة من النشوة، النشوة، كم أحب هذه الكلمة، وكم أحب أن أرددها، ولكن هل النشوة نشوة فعلا؟ أم أننا نبالغ حينما يتعلق الأمر باللذات، لا أعرف، لكن ما أعرفه يتمثل في حقيقة أن اللذة تكون بعيدة كل البعد عن الوصف حينما يكون الأمر روحانيا، فلو كانت اللذة الجسدية مشبعة، فإن اللذة الروحانية شديدة الإشباع، نعم، إن اللذة الروحانية تشبعني بصورة لا توصف، إنني أحلق حينما تشملني لمسات الروحانية، إنني أحلق حينما يكون الأمر روحانيا لا جسديا، ورغم ذلك لا يمكنني أن أنكر لذة الجسد، لكن لذة الروح لا تقارن، لا تقارن، لا تقارن.

ها هي تجلس أمامي بملابسها الداخلية، لكنني أحاول أن أكبت ما يرغب في البزوغ، فأخبرها بضرورة أن ترتدي ملابسها وترحل، لكنها تصمم على المكوث، والمكوث يسبب أمورا غريبة في هذه الأحيان، وبالفعل، حدث ما لم يكن في الحسبان، وقد أخبرتها بأن جسدها الرفائيلي مميز للغاية، لكنني سرعان ما وضحت لها أن المرأة واحدة، حتى ولو أخبرني ذكور العالم بأكمله أن النساء مختلفات، فسألتني عن وجهة النظر التي أخبرتها بها، فوضحت لها أن عمي قد أخبرني بذلك، عمي الدنجوان، فضحكت، فضحكت.

أخبرتها أنه بعد أن لف ودار، وضح لي أن الفروق تتمثل في أبعاد الجسد وطريقة التحدث والروح، ولكن لو كان الرجل من النوع الذي يتجاهل كثيرا ويتأمل الوجود بعبث وإيمان، فإن كل النساء

حينها تكون واحدة بالنسبة إليه، وهو ما أثبتته الكثير من التجارب، كما أن الذكور لا تشبع، وهو أمر محزن، لأن خيالها يتحرك باستمرار حيال هذه الأمور، والأمور تتحول في النهاية إلي أحلام، بعد كل هذا المجهود، والأمر نفسه بالنسبة إلى الإناث، لكن بصورة أقل.

لم تفهمني جيدا، ولم أفهم ما قلت، لكنها أخبرتني بأن كلماتي توضح أن الأمر يتصل بالرجل ورؤيته لا بالحقيقة المتصلة بالتنوع الأنثوي، فأخبرتها بأن النساء واحدة والرجال واحد، وقد صممت على ذلك، كما أنني قد وضحت لها أن التياع القلب وتآلف الأرواح لا يقارن، ولو تآلف روحان، صار الأمر سماويا.

وضحت لها أن ما نفعله لا يختلف عن صندوق القمامة حتى ولو كانت اللذة موجودة، لأن الروحين غير متآلفين ولأن الأمر يحدث دون حب عميق، على ما يبدو.

أظهرت الفتاة نوعا من الامتعاض، همت بالمغادرة، وقررت على ألا تعود، لكنها قبل مغادرتها، أخبرتني بأنني لا أجيد استخدام الكلمات، وهو ما اتفقت معها حياله في حقيقة الأمر.

أضحك كثيرا، أضحك كثيرا، أضحك كثيرا، فقد تخلصت من مناوشات الفتاة، ومن الضروري أن أهتم بالقضية فقط، القضية التي وكلت إلي، أيها اللعين، هل ستترك الفتاة تذهب هكذا دون عودة؟ اذهب وقم بمصالحتها وأرجعها، لا لن أفعل أيها الشيطان الخبيث، شيطان، من أين جاء هذا الشيطان الذي تحاوره؟ لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف.

صعدت إلي الأعلى، فوجدت الفتاة ملقية علي الأرض، يبدو أنها قد تناولت سما أو شيئا من هذا القبيل، لا أعرف، حملتها علي ظهري، نزلت بها إلي الأسفل، أسرعت إلي المستشفى، لكنها قد فارقت عالمنا، فارقت عالمنا بسبب بعض الكلمات الجارحة، ورغم ذلك قد يكون الأمر أكبر من ذلك، لا أعرف، لكن ما أعرفه أو أشعر به، يكمن في حقيقة أن الفتاة قد أحبتني لكنني قد تجاهلتها، وكم من مراهقة قد أذت نفسها من أجل مراهق لم تكمل علاقتها معه، وكم من حبيبة انتحرت من أجل حبيب، وكم من عاشقة نال الاكتئاب منها بسبب عاشق، رغم أن الأمر بأكمله متصل بضيق الرؤية حينها وصغر البيئة وقتها، فلو وسع المرء عقله استفاد، وهو ما يمثل المنطق والحكمة والتخلص من كل ما لا يفيد، لكن العقول وقتها تكون صغيرة فتنشغل بكل ما لا يفيد، وهو أمر محزن بكل تأكيد، ولا تعتقد أنني أتحدث في تفاهة، فمثل هذه الأمور تؤثر علي الصغار دون أن نشعر، حتي ولو كنا قد اعتدناها وعشناها وسايرناها في الماضي الذي لم يعد له أي وجود.

ها هو المواء يتعالى في الحي، لا يوجد انقطاع، المواء في كل مكان، الهررة تشارك البشر أفعالهم، الحي حزين من أجل الفتاة، ولكن لم أمثل السبب على ما يبدو، يبدو أن الأمر يتصل بشيء آخر، لا أعرف، ولكن ما أعرفه هو أن الأمر قد يكون أكبر من كل هذا، وقد يكون أكبر من وجودها ووجودي، وقد يكون أكبر من كل التكهنات التي أطلقها الحي حيال الفتاة وحيال نهايتها الغريبة، تلك النهاية التي لم نتوقعها من أجل الفتاة الصغيرة، من أجل الفتاة الصغيرة، من أجل الفتاة الصغيرة.

لقد نالت الهلوسات والوساوس مني على إثر ما حدث للفتاة، وبسبب عجزي عن حل الظاهرة، وقد يكون الأمر راجعا لأسباب أخري لا أحب أن أفصح عنها، أو أسباب لا أعرفها في حقيقة الأمر. فالإدراك الفردي ليس كما تظنون، والوعي جزء وليس بكل كما تعلمون.

الجزء الثاني من الرواية
(هلوسات ووساوس)

-١١-

في إحدى الليالي، سمعت صريرا في الأرضية، كان غريبا للغاية، كان صريرا عجيبا مضطربا لم يعرف استقرارا، ارتجفت ولم أر شيئا واضحا، تجاهلت، وعدت إلى نومي العميق، لكن الصوت قد عاد، وها هو يؤرقني ويقطع نومي ويبعد عني لذته التي لا تقارن.

تملكني خوف رهيب، شعرت بأن هناك ما يلاعبني ويرغب في طمس راحتي، لكنني تجاهلت مجددا وعدت إلى نومي. إلا أن الصوت ظل يلاحقني في الليلة التالية، وكان لا يعرف توقفا.

أشعلت مصباح الغرفة، جلست أتأمل المشهد حولي، وقد فوجئت بالعجوز تتأملني في منتصف الليل، بينما كان المواء يلاعب الأجواء في الخارج، وقد شعرت بقشعريرة شديدة وخفت من وجهها الدميم، ونال مني اضطراب لم ينل مني مثله قط.

كانت تمسك بمصباح غريب، كان قوطي الهيئة قديم الطراز يهيمن عليه التراب بشكل واضح، وقد اقتربت مني وأخبرتني بأنها تحمل المعرفة من أجلي لكن المعرفة قد غطت بالرماد وقد صارت مزيفة لا تفيد ولا تقدم أي جديد، كما أنها قد تعرضت إلى التجاهل من قبل الكثيرين، ومن اهتموا بها صاروا قلة، وقد عرفوا بجماعة النيردات، تلك الجماعة التي لم تهتم سوي بالدرجات.

نال مني خوف شديد، ففي صغري، كنت أحلم كثيرا بحلم يشبه ما أراه أمامي، إلا إنني في هذه المرة أعيش الواقع لا الحلم، فقد تحقق، وقد تحقق بشكل أكثر إرهاقا وأكثر غرابة.

كنت أحلم بجدتي في صغري، كنت أحلم بها وهي تصعد السلم بينما كانت الكهرباء منقطعة عن المنزل، لكن جدتي كانت جميلة طيبة حنونة، أما هذه المرأة العجوز، فيوجد بها النقيض و لا تقدم سوي كل ما يخيف ويرهق الأعصاب، وبالعودة إلي الحلم، فإنه كان يقدم الجدة بينما كانت تصعد السلم كما قلت مسبقا، وكانت تحمل مصباحا شبيها بذلك المصباح، وكانت تلج الغرفة، فأشعر بالفزع بسبب الدخول الفجائي في كل مرة، لكن الواقع الذي أراه أمامي يمثل رعبا وخوفا وكرها واضطرابا، لأنني لا أعرف كيف ولجت العجوز الغرفة وكيف تمكنت من الاقتراب مني بهذه الصورة التي لا أفهمها.

إن المرأة العجوز قد حلت على محل غير محلها، وقد ولجت غرفة لا تناسبها، ووجودها أمامي لا يناسب الوقت والمكان، وبهذه الصورة، يصبح الترحيب بها أمرا بعيدا كل البعد عن الذهن التقليدي.

لقد اختفت بغتة، لكنها عادت مجددا في الليلة الجديدة، كانت تحمل نفس المصباح، اقتربت مني، كان المواء يلاعب البيئة الخارجية كالمعتاد، وقد طال هذه المرة، وقد حاولت الانسجام فعجزت، وقد اقتربت المرأة وقذفت المصباح في وجهي، فنالت منه بعض الحروق، وقد أسرعت بالنزول إلي الأسفل، ووصلت إلي المستشفى في عجلة من أمري، نلت ما كان مناسبا بالنسبة إلي، وعندما عدت، وجدتها تقف أمام الباب، فسألتني عن سر ما حدث لي،

فضحكت وأخبرتها بأنها قد مثلت السبب، فتعجبت لأمري، وأخبرتني بأنها كانت في سفر قصير، وقد عادت لتوها، فنال الفزع مني وأخبرتها بأنها امرأة لعوب خبيثة عجوز ماكرة، فغضبت بشدة، وأقسمت بأنها قد عادت لتوها من السفر، أقسمت وكررت قسمها وصممت على كلماتها، فشككت في عقلي وأحسست بأن هناك مشكلة بي.

في الليلة الجديدة، جاءتني العجوز حاملة المصباح نفسه، كان المواء شديدا، كان لا يعرف انقطاعا، أحسست بأن الصوت قد نال مني فأرهق بيئتي الداخلية وأشعرني بصغر حجمي، لكن تركيزي كان منصبا على العجوز، تلك العجوز التي اقتربت وأخبرتني بأنها لن تتركني حتى تنشر الفزع بداخلي كي تعلمني درسا لم أفهمه وكي تخبرني بأمور استعصت على مخيلتي، أمسكت بوجهها وأزلت قناعها فظهر وجه الشابة اللعوب، لكنني قد أزلت القناع بعد أن تحسست نهدها وأدركت أنه كان يافعا، بعد أن أدركت أن ما لمست لم يخص عجوزا لكنه خص شابة صغيرة، وقد تحققت ووصلت، وقد ضحكت الفتاة كثيرا وأخبرتني بأنها كانت تلاعبني، لكنني عندما أمسكت بوجهها مجددا لم أجدها، فقد انفلتت واختفت، تلاشت كما يتلاشى الجسد بعد أن يدفن في معظم الأحيان.

وقد رأيت نفسي في ساحة كبيرة لم أعرف من أين جاءت، وجدت الكثير من الجثث، وجدت الكثير من الجماجم، وقد ارتفع صوت وأخبرني بأن كل هذه الجماجم خصت أناسا طماعين، كانت أحلامهم لا تعرف حدودا، كانوا يريدون المزيد باستمرار. لم تتوقف رغباتهم قط، رغباتهم الشهوانية المفعمة بالغرور.

وقد غادرت الساحة فوجدت نفسي مجددا بداخل غرفتي، وكانت هناك الكثير من الأصوات تلاعبني، أحسست وكأنني صرت أسيرا لحالة من الشيزوفرينيا، لكنني سرعان ما عدت إلى ذهني، وأخبرت نفسي بأنني أكبر الأمور وأضخم ما لا يجب أن يضخم، وقد أحسست بأن المخيلة البشرية موضع تضخيم، نعم، إنها تضخم كل شيء،

تضخم اللذة وتضخم المعاناة، لكن الواقع يخبرنا بالحقيقة، تلك الحقيقة التي لا مناص من بلوغها.

إن العجوز واللعوب محل خيالاتي وأوهامي، ولكن هناك نقطة إيجابية فيما يخص هذه الحالة، تلك النقطة التي تتمثل في إدراكي للموقف، تلك النقطة التي تتجسد عبر قدرتي على إدراك الخيالات وماهيتها، وهو ما يعد أمرا إيجابيا بشكل ما.

في القرن السادس قبل الميلاد، عكف ثلاثة من رجال الساموراي الياباني علي ترجمة كتاب فن الحرب لسون تزو، أخلصوا للأمر، أنهكوا أنفسهم من أجله، أنهكوا أنفسهم من أجل أن يترجم من الصينية إلي اليابانية، وكل هذا من أجل الآخرين، ومن أجل الفخر الفردي أيضا، ولكن عندما نتأمل ما فعلوه، نكتشف أن الأمر قد تعلق بالإخلاص، نعم، الإخلاص لشيء ما، فكل إنسان مطالب بأن يخلص لشيء ما، مطالب بأن يتنازل وأن يقدم ما لديه، لأنه إن صمم علي اللذات والمتع، أنهك، وهو ما يظهر بشكل خاص في النصف الثاني من الحياة، ذلك النصف الذي يطالبنا بالتضحية أكثر من أي شيء آخر.

تتمثل التضحية التقليدية في تربية الأبناء، التطور المهني، الحصول على الماجستير والدكتوراه، الإنفاق على الأسرة، لكن هناك بداخل كل إنسان حالة أخري، حالة تطالبه بأن يكون استثنائيا، بأن يقدم شيئا جديدا، وهو ما كان يحفزني تجاه بلورة ملامح الظاهرة والوصول إلى حل فيما يخص شأنها، لكنني في نفس الوقت كنت كثيرا ما أجابه بواسطة دوامات من الكسل والإرهاق والعجز، وقد

اكتشفت مع الوقت أنه أمر طبيعي، وأمر منتشر بين الأنام، دون استثناء.

استسلمت إلى بكاء شديد، ارتعدت فرائصي، كنت أغطي عيناي بكلتا اليدين، كانت أجهش، كنت أستسلم إلى بكاء رهيب، كنت أسيرا لبيئة صغيرة محدودة، بيئة باغتتني رغم اتساع عقلي، وهو ما علمني درسا لا يمكنني أن أنساه، فقد تعلمت درسا في الغرور، تعلمت أن العقل مهما اتسع معرض للقصور، وهو ما أفادني كثيرا في حقيقة الأمر، على المستوي الفكري قبل كل شيء.

إن الخوف الذي نال مني، كان نابعا من عجزي عن مسايرة البيئة التي حوطتني وشملت حياتي في هذه الفترة، وقد أدركت أن الإنسان عرضة للكثير من المتغيرات وأن الأقوى هو الأكثر قدرة على التكيف مع التغير، فالمتكيف قادر علي التقدم إلى الأمام، وقد رأيت قطة صغيرة تعرج في يوم من الأيام، إلا إنها كانت مصممة على التحرك إلى الأمام والبحث عن الطعام.

التكيف، التكيف، نعم، إن حرب الإنسان الكبرى متمثلة في القدرة على التكيف، وهي قدرة تكتسب مع الوقت وتتطور، لأنها إن ركدت تلاشت، ولهذا من الضروري أن تدعم باستمرار وأن تكون محل تركيز من قبل كل إنسان، فالتكيف مع التغير أمر محوري للغاية، وكثيرا ما وضحت في كتاباتي المتواضعة أن التكيف يبني نفسا سهلة، يبني نفسا أكثر قدرة على العبور بليونة، بالطبع، لا يمكن أن يخلو الطريق من الصعوبات، لكن من الممكن أن تساعد العقلية المتكيفة صاحبها على التأقلم والمرور بصورة أفضل وأسرع وأكثر مرونة وحنكة.

وجدت نفسي ممددا فوق منضدة حديدية ضخمة، وقد وجدت اللعوب ممددة إلى جانبي مبتسمة، كانت عارية وكنت عاريا، وقد جاءتنا العجوز وكانت تحمل مشرطا وأدوات عديدة في حقيبة غريبة، كانت ترتدي ما يشبه رداء الجراحين، وقد أمسكت بنا بينما كنا مقيدين بشكل غريب، كنا عاجزين عن النهوض بشكل عجيب، وقد أخبرتنا بأن الأعضاء الذكورية والأنثوية لا تتعدي كونها قطعا من اللحم، وقد ضحكت كثيرا وبترت أجزاء عديدة من جسدينا، ورغم ذلك، كان الوعي موجودا، فلماذا لم يغب؟ ولماذا لم نتلاش؟

إنه لأمر عجيب أن يتعرض الوعي إلى هذه الصورة ورغم ذلك لا يفقد! إنه لأمر عجيب أن نبقي دون تغير وألا نتعرض إلى تأثير صادم، وقد استيقظت من نومي، فوجدت أنني سليم ولم أجد الفتاة بطبيعة الحال، تلك الفتاة التي اختفت وصعدت روحها إلى السماء، لكنها رغم ذلك مصممة على مطاردتي والنيل مني في مخيلتي.

أحضرت طبقا من الأجنحة الحارة وأغرقتها في الترياكي تارة وفي الباربكيو بالتمر تارة أخري، كنت ألتهم الأجنحة كالوحش، كنت جائعا شرها للغاية، كنت أتنقل بين الأجنحة دون توقف، وقد أتبعتها بقطعة ضخمة من التشيزكيك مغطاة بالدولشي دي ليتشي، وبعد ذلك شربت كوبا ضخما من الشعير الهولندي الرائع.

تبيع المطاعم الأجنحة بأسعار مرتفعة في الكثير من البلاد، نعم، فرغم أن الأجنحة رخيصة، إلا إنها تباع بأسعار مرتفعة، ويعود ذلك إلى أسعار التشغيل واستخدام الصوصات المتنوعة، ورغم ذلك يبقي السعر مبالغا فيه بكل الأشكال.

يمكنك أن تأكلها مع الجبنة الزرقاء أو الرانش أو المسطردة بالعسل أو العسل الخالص أو الترافل، ولكن عندما تدمنها مع واحد من هذه الأنواع، يصبح الأمر كارثيا، وقد كنت أختار الجبنة الزرقاء في كل مرة، كنت أختارها في كل مرة، لكنني في هذه المرة اتجهت إلى الترياكي والباربكيو بالتمر، إنها المرة الأولي، هل تعلم ذلك عزيزي القارئ؟

إنه حدث وجودي بالنسبة إلي، لكنه لا يهمك، كما أنني أحاول أن أجعله وجوديا رغم علمي بتفاهته، هكذا هو حال البشر، صدقني، إنهم يريدون أن يصنعوا من أفعالهم وأحداثهم أمرا مهما، رغم بساطتها بالنسبة إلى الوجود، ولهذا كنت أحيانا أشعر بأن أمر الظاهرة لا يهم، لأنه غير مفهوم، بمعني أن صورته متغيرة، فأحيانا

أشعر بأنه مهم وأحيانا أشعر بأنه لا يهم، وهو ما وضعني في حلقات التعجب وحلزونات الغرابة.

بعد أن انتهيت، نزلت إلى العجوز، وقد وجدت ما لم يكن في الحسبان، وجدت أمرا لم يكن ليخطر في البال.

-١٥-

وجدت الشابة اللعوب واقفة أمام العجوز كاشفة عن مؤخرتها، وقد أخبرتني العجوز بأن الفتاة تعاني من Hemorrhoids رهيب، وأنه من الضروري أن ألقي نظرة، فضحكت كثيرا وأسرعت بالهروب، لكن ما تسبب في ذهولي بشكل رئيسي، تمثل في وجود الفتاة، كنت أضحك بلا هوادة، كنت أضحك وأرتجف في الوقت عينه، كنت أرتجف ارتجافا رهيبا، فكيف عادت؟

وجدت العجوز تقف أمامي بغتة، وقد أخبرتني بأنها قد تعجبت من أمري، عندما نزلت إليها، حيث أنها بمجرد أن اقتربت مني لتحاورني هممت بالمغادرة هاربا، فأخبرتها بأنني رأيتها تتحدث مع الشابة، فضحكت وأخبرتني بأنها كانت وحدها.

لقد أصبت بالجنون على ما يبدو، نعم، يبدو أنني قد أصبت بالجنون. كدت أن أفقد إيماني بقوتي وفكري، لقد تذكرت حينما كنت أنصت إلي شيخ علي التلفاز في يوم من الأيام وكان يتحدث عن ضرورة تنظيم العلاقات بين الشبان، وكنت مستمعا جيدا، لكنني عندما نزلت إلى أرض الواقع وقفزت إلى المترو، وجدت المراهقين والمراهقات في سن ال١٥ في حالة من تبادل اللمسات الحميمية والأحضان دون رادع، وقد سألت نفسي عن الحالة، فأجابتني بأن التحكم في النفس يأتي في سن متأخرة عند الكثيرين والكثيرات، دون تعميم، فكيف سيتحكم الصغار في أنفسهم في سن ال١٥ أو ال١٦؟ كيف يمكنهم ذلك؟

إنني لا أبرر، لكن العائلات منشغلة بجمع المال، أكثر من أي شيء آخر، وتعمق الإنترنت والتوسع الذي نعيشه، جعل الفوضى بمثابة السيد، والخلفية الأخلاقية صارت هشة، وحتى ولو وجدت، فإنها قد لا تحول بين الفرد ورغباته الغريزية في الكثير من الأحيان، ورغم ذلك هناك من يتحكم بنفسه أيضا بكل تأكيد.

هناك تشابه بين الحالتين، ففي كلتا الحالتين، كنت مؤمنا بأفكار معينة، لكنها لم تتواجد على أرض الواقع بأي شكل من الأشكال، في كلتا الحالتين، كدت أن أفقد إيماني بعقلي ومنظومتي، وقد عاصرت الفوضى أيضا في وقت من الأوقات، وهو ما جعل العبث يبحث عن المنطق ليسانده بأي شكل من الأشكال.

هل تعرف تلك الحالة التي تحاول فيها أن تعقلن عواطفك؟ هل تعرف تلك الحالة التي تحاول فيها أن تفك الغموض وتصبح مرنا بأي قدر ممكن؟

إنني علي علم بأنك تتحدث إلى فتاة الآن على الماسنجر وتحاول جذبها إليك، كما أنك تستهجن كلماتي وتتعجب مني، وقد تصفني بالمنافق أيضا، ولكن الأمر بأكمله يتعلق بنيتك وحجم نقائك وصفائك، فحديثك وحده مقبول، أما نيتك، فإنها ستعبر حتما عن شخصيتك.

إن الحديث بين البشر مقبول، بين الجنسين مقبول، وهو ما يعد أمرا طبيعيا، لكن الفكرة بأكملها تتمثل في النية وحقيقة العاطفة والصدق، كما أنني أرغب في أن أوضح نقطة مهمة للغاية، تلك النقطة التي تخبرنا بأن شخصيتك ستنعكس عليك في يوم من الأيام

لترهقك، فإن كنت تكذب باستمرار على سبيل المثال، فمن الممكن أن تري الكل يكذب عليك في وقت من الأوقات، وإن كنت تتلاعب بعواطف الناس، من الممكن أن تصاب بحالة من الإحساس بالاضطهاد، ولهذا من الممكن أن تلقي انعكاساتك على الآخرين بكل سهولة يوما ما.

في المساء، جلست أقرأ كتابا نشرت به أبحاث علمية تتحدث عن حقيقة أن العلاقات التي تدوم كثيرا، تلك العلاقات الأحادية المبنية على الإخلاص، تتمتع بالاطمئنان والاستقرار حتى ولو وجدت المشاكل، مشاكل أي علاقة، كما أن الوضع الكيميائي يخبرنا بأن الفردين يتمتعان بمستقبلات أوكسيتوسين بشكل أعمق وأكبر، وهو ما وضحته التجارب ومنصات الاستطلاع.

وبينما كنت متعمقا في التنقل بين الكلمات، وجدت العجوز تجلس أمامي فجأة، وجدتها بداخل غرفتي، فتراجعت إلي الوراء، وقد تحولت إلي اللعوب بصورة غريبة، وكانت ترقص من أجلي دون توقف، كنت أكل الأجنحة مدعومة بالجبنة الزرقاء بينما كانت ترقص من أجلي مرتدية بدلة رقص حمراء قصيرة للغاية، وكنت منسجما مع الحركات، ففي الرقص يوجد فن، لكنه فن غير مباح، كما تعلمون، فهناك أنواع مباحة وهناك أنواع غير مباحة، كما هو الحال مع كل شيء في هذه الدنيا، وقد يقدم الناس علي فعل غير المباح رغم علمهم بأنه غير مباح، لأسباب دنيوية خالصة للأسف الشديد.

إنها حالة من الهلوسات على ما يبدو، فقد عدت إلى بيئتي وحيدا. كان سمت المجانين يعلوني، سمت المجانين الذين استهلكتهم أفكارهم فصاروا عرضة للتآكل والاندثار، لقد استنزفت طاقة الإنسان وأكل لحمه علنا دون أن يردع ما يحدث له، لقد تلاعبت به الشهوات وقتلت روحه، لقد أدت المثيرات الكثيرة إلى اختلاله وعدم استمتاعه بلحظته، طمعه وشغفه الأحمق واعتقاده بالخلود، كلها

أمور زادت الطين بلة، فالوساوس والخيالات منبع الإرهاق، والإرهاق نال من الجميع.

كل إنسان يتخيل جمهوره الخاص، كل منا يري أن هناك جمهورا يصفق من أجله، رغم أن من يصفق من أجله، يتمثل في قليل من أفراد عائلته المقربين وقليل من الأصدقاء، أما البقية، فإنها منشغلة بأنفسها، وهو أمر لا يمكن تجاهله، فالأب يري أن ابنه أفضل من أبناء الآخرين، حتى ولو قدم أبناء الآخرين مجهودا أفضل، وفي الوقت عينه، يري الابن أباه على أنه الأفضل رغم أنه لا يمثل سوي أب من الآباء، ولكن لا يسير الأمر بهذه الصورة على الدوام، إلا أن الذاتية والغريزة بمثابة الأمر الواضح بكل تأكيد.

إنني أتخيل أن هناك جمهورا ينتظر مني حل القضية، إنني أعتقد بأن الجمهور الخيالي سيصفق من أجلي حينما أفك شفرات الظاهرة، وفي الوقت عينه تلاعبني السيناريوهات الأخرى بين الفينة والأخرى، فلو عجزت عن الوصول، ستصبح ذاتي عرضة للسخرية والاستهزاء، ذاتي التي أحمل عبئها، ذاتي التي أتحرك لأوفر لها ما تريد، لكنها في حاجة إلي الكبت بين الحين والآخر، كما أنها في حاجة إلي أن تدرك أن الجمهور قد يكون وهميا في حقيقة الأمر، ومن الممكن أن يكون الجمهور نفسه غيورا، نعم، من الممكن أن يكون الجمهور غيورا، إن وجد في حقيقة الأمر، إن وجد، إن وجد، فكل منا منشغل بذاته، ذاته التي أنهكته وقضت عليه وجعلته أشبه بالأحمق اللعين.

لكن الحماقة درجات، فهناك أحمق يجيد السلكان، وهناك أحمق راكد، والمجتمع يحب الأحمق السالك، وهو ما لا يمكننا أن ننكره بكل تأكيد.

لقد سمعت أصوات المواء تدب في المكان، كانت شديدة، كما أنني قد سمعت خرخرة قريبة، فانتفضت من مكاني، فوجدت قطة تلاعبني، كانت تقترب مني، وقد تحدثت بصوت بشري خالص، وقالت: (توقف أيها اللعين عن التفلسف، إن البشر لا يحتاجون سوي المال والغذاء والشهوات والهراء)، حينها لم أتمكن من التعامل مع الموقف، ففصل المخ الدائرة، وأصبت بالsyncope سريعا.

إنه vasovagal syncope، لا تقلقوا، إنها حالة من الإغماء الطبيعي والمنتشر، كل ما عليه فعله يتمثل في ضرورة أن ينال قسطا من الراحة، ورغم ذلك، من الممكن أن نجري المزيد من الفحوصات لاحقا من أجل الاطمئنان التام.

هكذا تحدث الطبيب، وقد غادر تاركا إياي في الغرفة مع بعض أبناء الحي الذين غادروا بمجرد مغادرته، لكنهم قد عرفوا بأمري بفعل العجوز على ما يبدو، العجوز الشقية التي تمثل محور خيالاتي وأوهامي.

استيقظت في منتصف نومي، تحركت باتجاه دورق الماء، وجدت أن نصفه قد فرغ، رغم أنني لم أشرب منه سوي رشفة، من شرب؟ كيف قل الماء بهذه الصورة؟ هل هناك من يجلس معي و لا أعرف عنه؟ هل هناك نفس تصاحبني غير نفسي؟

إن التأثير ببيئتي أمر أدركت مؤخرا أنه لا يخصني وحدي، فهناك مثيرات وهناك متغيرات وهناك أمور ماورائية، وهناك ما لا يفهم وهناك غموض كامن بين أبعاد التجربة، وقد تعجبت لأمر الدورق، تعجبت بشكل شديد، لأنني كنت على يقين بأن مستوي الماء لم يكن عند هذا المستوي، وهو ما أثار دهشتي وحيرني كثيرا، لكن النوم قد غلب وناداني، فعدت إليه مسرعا.

جاءني حلم غريب، حلمت بأنني محاط بالكثير من النساء، كن يرقصن على الشاطئ، كن آسيويات، كن جميلات، كانت الحلاوة تشع منهن وكان البهاء يلاعب هيئاتهن، كن من الصين واليابان والفلبين وتايلاند وكوريا وماليزيا، كن يتبخترن كاشفات عن الأنوثة في قمتها والخضوع في زهوه والروعة في أوجها والحنكة في عمقها، نعم، لدي الخضوع الأنثوي زهو، نعم، فلا تتعجب مما أقول أيها القارئ العزيز، إنه زهو يقابله الاحترام، وبهذه الصورة تسير الأمور وتتحرك المجاديف إلى الأمام.

كان النخيل يزين الشاطئ، كانت الرؤية مشعة، وكانت الشمس تلاعبنا بشكل لا يخطر في البال، وقد اختلط اللون الذهبي لأشعة الشمس بالأجساد المرتدية للبكيني فلاعبت البيئة كيمياء دماغي وأحدثت نوعا من الشرارة التي لا توصف، فتحرك الأدرينالين وتلاعب الدوبامين وقدم السيرتونين عرضا مميزا.

كانت تجربة سخية، وقد استمرت الرقصات دون توقف، لكنني قد أحسست بالملل فغادرت، فكثرة التعرض تفقد الإحساس كما تعلمون، ولهذا وجب الحجب والعودة من جديد حينما يصبح العقل مستعدا للجولة الثانية.

استيقظت من النوم، فوجدت أن الدورق قد فرغ تماما، ضحكت كثيرا حتى كدت أن أصاب بالجنون من فرط ضحكاتي، شعرت بأن هناك نفسا أخري تسكن معي، نعم، يبدو أن هناك نفسا أخري تسكن غرفتي وتشاركني مشربي، وقد تشاركني كل شيء فيما

بعد، ربما أكون ملبوسا وربما أكون قد أصبت بالجنون بشكل فعلي، نعم، ربما أكون قد أصبت بالجنون بشكل تام.

-١٨-

تيه نفسه، أهلكها، حيرها، هكذا هو الحال حينما نتكلم عن الإنسان الواهم الطماع الذي يرغب في كل شيء، ولو أنني قد رغبت في حل القضية وحدها لكان حالي أفضل، لكني لاعبت اللعوب وتبادلت معها المتعة ومنحتها متعة زائلة وهي فعلت المثل أيضا، وقد انتهي الحال بها إلى التلاشي بصورة بشعة وانتهي الحال بي بين الهلوسات والوساوس.

لقد فقد عقلي القدرة على التفرقة بين الحقيقة والخيال، لقد فقد عقلي القدرة على التفرقة بين ما ينتج ويعد منطقيا وما ينتج ويعد هزليا، إنها حالة من اللخبطة، حالة من الشك، حالة من التعامل مع سيناريوهات لا تفهم وقصص لا تدرك وتفاصيل لا قيمة لها، رغم اعتقادنا بأهميتها.

إن وعيك يقيدك، إنه سجن عليك أن تتخلص منه، فالعالم كبير، ورغم ذلك أنت محبوس بداخل وعيك، تحرر، اهرب، خلص نفسك من هذا السجن، كما أنه من الضروري أن أخبرك بأن وعيك لا يمثل شيئا مهما بالنسبة إلى الوجود، فالوعي جزء زائر، والتجربة موجودة وتمثل الأساس، وبهذه الصورة يصبح الوعي ضيفا لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا الضيف أن يتعامل بصورة لائقة قبل أن يرحل، وهو ما يعد أمرا منطقيا ومفهوما.

إن الإحساس بمحسوس غير موجود في حالة اليقظة، يعد أمرا مخيفا، نعم، ولكن هل من المعقول أن يكون كل ما أراه ضربا من

الخيال والهلوسة؟ وكيف يمكنني أن أدرك حالتي دون أن أنغمس في الخيالات محكوما على بالجهل وعدم الملاحظة؟

يبدو أن الأمر حقيقي، نعم، يبدو أن العجوز تسخر مني وترغب في إلحاقي بالجنون والهراء!

-١٩-

صعدت العجوز إلي، قدمت دقات على بابي، فتحت، وجدتها تقف أمامي كاشفة عن ابتسامة غريبة، وقد أخبرتني بأنها قد سمعت أصواتا عالية لا تناسب التوقيت، فأخبرتها بأنني كنت أشاهد فيلم Baby Boy Baby Girl، وهو فيلم مفعم بالصخب والمرح والعبث، وقد اعتذرت من أجل ذلك، وأخبرتها بأنني سأخفض الصوت.

ظل الصوت مرتفعا دون أن أشعر، وقد صعدت مجددا، لكنني في هذه المرة وجدتها في منتصف الصالة فجأة، ففزعت بشدة وأحسست بأنني في حلم عميق.

هل تعرف ذلك الإحساس الغريب الذي ينتابك حينما تشعر بأن الواقع قد غادرك وتحول إلى ماهية غريبة غير مفهومة، لقد كان الموقف غريبا للغاية، وقد تعجبت مما رأيت، لكنني وجدت نفسي ملقيا على الأريكة أكمل المشاهدة، وقد غابت المرأة العجوز عن الساحة وكأنها لم تزرها قط، وقد شعرت بقشعريرة سربت صدي الخوف إلى قلبي، وحاولت التأقلم مع تلك الخيالات الغريبة التي لاعبتني فأرهقتني.

إن المعرفة الخاصة بالعجوز والخلاعة الخاصة باللعوب، قد تحالفا من أجل إقحامي في دوائر الإرهاق والتشتت، وكل ما يمكنني فعله، يتمثل في التجاوب والمسايرة، فكيف يمكنني أن أهرب مما أقحمت فيه؟ ولكن هل أقحمت حقا في كل ذلك أم أنني من أقحمت نفسي في هذه الدوائر العبثية الغريبة؟

لا أعرف، حقا، لا أعرف، إنني لم أعد قادرا على التفرقة بين الواقع والخيال، إن تجربتي صارت حلما، وربما تكون قد صارت كابوسا، لكنني على يقين بأن التجربة عند الجميع تأخذ منعطفا في وقت ما، ذلك الوقت الذي يدرك فيه الإنسان أنه لا يمثل سوي أداة.

-٢٠-

زرت مطعما من مطاعم الSamgyupsal، كان مطعما مميزا، تم افتتاحه منذ سنة في المنطقة، وقد عمد إلي خدمة السائحين الكوريين بشكل رئيسي أو القاطنين الكوريين الذين يعملون بالبلاد، وهم قلة بطبيعة الحال.

كان اللحم مدهنا بشكل واضح، كان الدهن في كل مكان، لم أحب التجربة كثيرا، لكنها كانت جميلة في الوقت عينه، هل تعرف تلك المشاعر المختلطة التي تنتابك حينما تتعرض إلى شيء كهذا؟

لم أحب الدهن باللحم البقري لكنني أحببت الفراخ الكورية بالعسل وأحببت الفراخ المشوية، كنت أقوم بمهمة الطبخ بنفسي كما تعلمون، فكل ما عليهم فعله يتمثل في إحضار المواد، أما الزبون، فإنه يستمتع بعملية الإعداد، وهو أمر محبب لدي الآسيويين، كما أن المطاعم الشبيهة بهذا المطعم منتشرة في معظم البلاد الآسيوية، وذوات شعبية وإقبال، كمطعم البقر الرائع الشهير والموجود في الكثير من البلدان.

عصير الأناناس، الشاي باللبن المثلج، الشاي بالفواكه المثلج، الماء، كلها مشروبات يمكنك تناولها ويمكنك التكرار دون حدود، ولكن الثلج خدعة كبيرة كما تعلمون.

أحسست بأن العجوز قد مرت أمامي بينما كنت أشرب عصير الأناناس المثلج، أحسست أنني قد رأيتها تمر مهرولة، غادرت مطرحي، تتبعتها، وقد خرجت إلي الشارع بعد أن دفعت الحساب،

وصممت علي تتبعها، وقد وقفت عند الزاوية الخاصة بممر ضيق بين البنايات، وابتسمت ابتسامة نمت عن خبث وشيطانية لم أر لها مثيلا، وعندما اقتربت منها، وجدتها قد غادرت، غادرتني المعرفة وصرت أسير الخيالات والهراء، غادرتني الخلاعة مسبقا وصرت أسير العواقب، ولكن الخيال قد يكون أهم من المعرفة في الكثير من الأحيان، أما توابع الخلاعة، فلا يوجد لها علاج للأسف الشديد.

-٢١-

إنه منتصف الليل، المواء يعلو، الخرخرة ترتفع، أعجز عن النوم، الأرق ينال مني كما ينال من الكثيرين، التفكير، كثرة التفكير، اللعنة، كيف يمكنني أن أمنح عقلي بعض السكينة في هذه الأيام؟

لقد قضيت عقودا من حياتي في النوم الهادئ، كنت لا أفكر بأي شكل من الأشكال قبل النوم، كنت هادئا للغاية، كان الكاموميل يساعدني وكانت قلة الرغبات تساندني، كنت أسيرا للنرفانا، لا، لم أكن أسيرا، لقد خانني التعبير، فكيف يمكن أن يكون المرء أسيرا حينما يتعلق الأمر بالجمال والروعة والصفاء، الصفاء الذي نبتغيه جميعا.

الصفاء الذي لن تحصده بعد لذة محرمة ولن يزورك إذا صممت على الغرور ولن يساندك إذا كنت من الواهمين التائهين الذين ضل سعيهم وهم يحسبون أن صنعهم مميز، فالصفاء لا مثيل له، ورغم ذلك قد يغيب عنك في بعض الأيام أو السنوات، وفي هذه الحالة يكون غيابه ناجما عن تطلعات عديدة ورغبات كثيرة، وبهذه الصورة لا يتصل غيابه بالوهم فحسب لكنه يتصل بالتطلع أيضا، وهو ما يعد أمرا مفهوما.

لقد أسرتني رغبتي الشديدة في التعرف إلي أمر الظاهرة في زنزانة المرهقين والمعاتيه، لقد أسرت كمجنون نفذت حيله وفرغت طرقه ونهب حظه وسرق أمره منه، إنه لأمر غريب أن يكون هذا هو الحال بعد كل هذه السنين، إنه لأمر شديد الغرابة أن يتحول الإنسان إلى كومة من العقد مع الوقت، ولكن الأمر لا يخصني وحدي، فالأمر

يخص الجميع، وهو ما لا يمكن لأحد أن ينكره بأي شكل من الأشكال.

عندما تسأل شيخا عما وصل إليه في حياته بينما تسجل أقواله، سيخبرك بأن حياته كانت ممتازة، سيتجاهل الصعاب وسيجمل اللحظة، وهكذا هو الحال مع الكثير من البشر، فعندما تسلط الأضواء يزين كل منهم هيئته وكلمته ولا يهتم بما فات، وقد يكون الأمر شائعا بشكل كبير، لا أعرف في حقيقة الأمر، ولكن ما أعرفه، يتمثل في حقيقة أن الإنسان نغمات، فمن الممكن أن يخبرك اليوم بأنه في حالة جيدة، وفي اليوم التالي يخبرك بأنه ليس علي ما يرام، ولو أنني قد أقحمتك في متاهتي هذه عزيزي القارئ، فإنني قد فعلت ذلك لأوضح لك أن تأرجحي بين الشكوى والرضا بمثابة طبيعة الإنسان، كما أنك ستدرك مع الوقت أن الأمر مطبق عليك، نعم، الأمر مطبق عليك، ومطبق علي الجميع، فلا يوجد استثناء بأي شكل من الأشكال.

تبهج رشاقة طيور السنونو عيناي، وأنا واقف أمام الشباك، تلاعب عقلي، تناشدني بأن أراقبها، ولكن هل تهتم حقا لأمري؟ لا أعرف، ورغم ذلك، ما أعرفه يتمثل في حقيقة أن الكائنات تحاول أن تجذب الانتباه، ولا يوجد كائن يمكنه أن يتحدى الكائنات البشرية فيما يخص العرض وجذب الانتباه، وهو ما أحاول أن أفعله معك منذ بداية القصة، فإنني أحاول أن أجذب انتباهك، أحاول أن أجعلك تهتم بقصتي، رغم أنه من الممكن أن تكون قصتي عبثية، أن تكون عبثية كقصتك تماما، ولكنك تصمم على أن قصتك التي تخصك مهمة للغاية، فما حجم الضمانات التي تمتلكها حيال جدية قصتك؟ وما حجم طموحك وخيالك ورغبتك في الوصول إلى شيء مهم؟

أعتقد أن المهم يختلف بين الأناس كما يختلف شأن التفاهات، وكونك أسيرا لعائلتك ومجتمعك ونفسك يجعل من أمرك شيئا محيرا للغاية، وربما أكون مثلك، ربما أكون أسيرا للبيئة التي نشأت فيها وترعرعت، وربما أكون أسيرا للبيئة التي انتقلت إليها أيضا، وربما تكون بيئتي الحالية مصدر اضطرابي.

هناك خبطات على الباب، إنها العجوز، تخبرني بأنها قد أحضرت زجاجة الروت بير الخاصة بي، فأشكرها وأضحك كثيرا، أشرب وأرضي رغبات سنتي المسكرة، إنها مفعمة بالسكر، اللعنة، ٤٠ جراما من السكر في هذه العلبة، إنها طريق مباشر إلى الأمراض، ولكن الكل يشرب كالمجانين، خاصة الصغار، ولكن كيف عرفت العجوز أنني أحب الروت بير؟ ولماذا أحضرتها من أجلي وربطتها بي؟ من هذه المرأة حقا؟

إن شأنها يقلقني، فقد منحتني إياها وغادرتني، أعود مجددا إلى متاهات عقلي، أحاول أن أتأمل حالتي وحالة الحي الذي أمكث فيه، وأتمنى لو تمكنت من إنهاء مهمتي والعودة إلى بلدتي واحتساء نخب نجاحاتي، ولكن كيف يمكنني أن أخرج من هذه الدائرة اللعينة؟ كيف يمكنني أن أهرب إلى أرض بلا رجعة؟ كيف يمكنني أن أعبر عن كل ما يكمن بداخلي دون أن يفضح شأني؟ ولكن هل يبالي أحد بي حقا؟

إنني كائن غريب، كائن صغير، كائن يطلب المساعدة من كائنات أخري، لكنني قد أدركت مع الوقت أن الإنسان سند نفسه، أدركت أن الإنسان مطالب بأن يدعم ويحب نفسه قبل أن يطلب الدعم والحب من الآخرين، ولا يمكنني أن أنكر أن الاجتماعية حلقة قد جبل

الإنسان عليها، لكنها حلقة مرهقة شأنها شأن الطعام حينما يؤكل، فلا مناص من الانخراط فيها ولا مفر من تقبل تبعاتها وعواقبها أيضا.

في الصباح، نزلت إلى الشارع، جلست أتحدث مع بعض الناس محاولا الوصول إلى بعض المعلومات فيما يخص أمر الظاهرة، كنت مصمما على الوصول إلى شيء ما، كنت مصمما على الوصول إلى حالة من الاستقرار. كان عقلي يرغب في الهدوء، كان يرغب في راحة البال، كان يرغب في التخلص مما يرهق الأذهان، ولكن الأمر ليس باليسير. فكل شيء في حاجة إلى مجهود، وكل مجهود يتصل بتفكير وتركيز وانتباه وإعداد بكل تأكيد.

كل إنسان يحمل موته بداخله مثلما تحمل الثمرة نواتها، هكذا يقول ريلكه، ومن الجميل أن تتوافق الحيوات مع بعضها البعض لأطول فترة ممكنة كما تقول دي بوفوار. وهو ما يعني أن الانسجام الكامل غير موجود، وأن التغير هو الشيء الوحيد الثابت في هذه الحياة، وأن الأعزب يعبر الجسر وحيدا محاطا بذبذبات الفكر بينما يعبره المتزوج مع زوجته وعائلته بداخل عربية الأمير والأميرة التي تجرها الخيول فتنال منهم الهزات لكن دفء الصحبة موجود، وهو ما يشير إلي أن محاولتي بلوغ الاستقرار في هذا الأمر لا تبتعد كثيرا عن العديد من الأمور الأخرى، تلك الأمور التي يحاول أصحابها الوصول إلي حالة الاستقرار. ورغم ذلك لا يمكنهم الوصول لأن التغير بمثابة الأساس كما تعلمون.

إن الوهم يخيل لنا أنه من الممكن المكوث، ولكن الحقيقة تخبرنا بأن المكوث ذو أجل شأنه شأن كل شيء، وهو ما لا يمكن الهروب منه سوي بالاعتماد علي عقل قاصر. فالعقل القاصر يمنعه قصوره من الإدراك، وبهذه الصورة تمر الحياة عليه بصورة أكثر تدرجا،

فيتعرف إلي الأشياء تدريجيا بصورة بطيئة للغاية، وهو ما يعد أمرا مفهوما، أما الذهن الفضولي، فإنه يتعرف علي الأشياء سريعا، وبهذه الصورة تتلف الكثير من أموره خاصة فيما يخص الشعوريات، ولو أنني قد أقحمتك في متاهتي هذه عزيزي القارئ، فإنني قد فعلت لأخبرك بأن العقول بمختلف مستوياتها تسعي نحو إدراك حالة من الاستقرار، حالة من الاستقرار لا تدرك ولا تبلغ، إلا للحظات، وهو ما يعد أمرا منطقيا حينما يتعلق الأمر بتأمل أمور الدنيا.

كنت أتنقل بين أبناء الحي محاولا الوصول إلي حالة الاستقرار، كنت واهما متأرجحا متلاعبا محاولا أن أبلغ ما لا يبلغ وأن أفهم ما لا يفهم، كان الأمر أشبه بمن يبلغ نقطة ويشعر بالحماسة من أجل بلوغها، لكنها بمجرد أن تبلغ تمنحه نوعا من الملل، فيبحث عن نقطة جديدة، وهكذا، يستمر في الترنح بين دوامات الخيال والأفكار، يستمر في التنقل بين أمور لا يفهمها لكنه قد جبل علي الجري وراءها، لكنه قد جبل علي الجري وراءها بفعل الطبيعة والبيئة والعائلة والكثير من العناصر الأخرى التي شكلت ذهنه وجعلته في حالة من البحث المستمر عن شيء ما، وقد يعد الأمر بمثابة طبيعة العقول، تلك الطبيعة التي تجري وراء شيء جديد كل فترة، منعا للملل، لكن الملل خبيث لعين، الملل يتسلل إلي البشر من كل الأنحاء، مهما فعلوا ومهما جددوا.

ولو تأملنا العقول الساذجة، لوجدناها تجري وراء الشهوات، تجري وراءها متجاهلة حقيقة أنه لا مناص من زيارة الألم والفقدان إياها في يوم من الأيام، كما أن العقول التي تجري وراء المال ستنهك أيضا، والعقول التي تجري وراء العلم ستنهك أيضا، لكن الجري

وراء العلم أمر عظيم، الجري وراءه أمر مفيد ومثمر وذو حسنات كثيرة وفائدة كبيرة.

إنني أصف لكم هذه الحالة التي يعيشها كل البشر بدرجات مختلفة، تلك الحالة المبنية علي التأرجح لا السكون، نعم، يدرك السكون بين الحين والآخر، يدرك بواسطة حضن أو لحظة نشوة أو إحساس سعادة قد حل بفعل نجاح أو نصر، ولكن لا يمكن للمرء أن يبلغ هذا الشعور بشكل دائم ولا يمكنه أن يمسكه بين يديه دون أن يفلت منه، إنها الحقيقة التي لا مهرب منها، الحقيقة التي تمثل كل منطقي في هذا الوجود، هذا الوجود الذي تعجز عقولنا القاصرة عن فهمه، نعم، تعجز عن فهمه، نعم، تعجز عن فهمه، وكم من رجل زار التجربة مسبقا وخرج منها عاريا، خرج منها دون أن يكون واعيا، خرج منها منهكا.

جن الليل، جلست أتأمل أفكاري، رأيت أننا ضيوف، كلنا ضيوف، نعم، كلنا ضيوف، كما أن التغير يسري علينا كما يسري علي كل شيء في هذا الوجود، وهو ما لا يمكن إنكاره، كما أن الزوجين ضيفان يحاولان أن يتكيفا معا قدر الإمكان لأطول فترة ممكنة، والأمر نفسه بالنسبة إلى الصديقين، والأمر نفسه بالنسبة إلى كل شيء، فما نحن سوي ضيوف.

لا يوجد كائنان يشبهان بعضهما البعض في هذا الوجود، على المستوي الداخلي والخارجي، حتى ولو كانت التجربة مكررة، ولذلك تمثل كل محاولاتنا فيما يخص التكيف محاولات هادفة نحو الموافقة والاستمرارية قدر الإمكان لأطول فترة ممكنة، قبل أن يحل الانقطاع، وهو ما يمكن تفحصه وإدراكه مع الوقت، وهو أمر محزن، لكنه يمثل الحقيقة التي لا مناص منها في حقيقة الأمر.

التغير يسيطر علي كل شيء، التغير يمثل الأمر الوحيد الثابت في هذه الحياة، هذه الحياة لا تمثل سوي معبر، التغير لا مهرب منه، التغير بمثابة الأساس، الشخصية تتغير كل عقد بشكل ملحوظ، الإنسان في تغير دائم حتي يحل الانقطاع، وقد يتبع الانقطاع نوع من التحور يستعصي علي أذهاننا، ولكن لا مناص من التغير ولا مفر من التحور ولا مهرب من كل جديد، فالتجربة قائمة علي التنقل والتنوع والتغير والتلاعب والصبغة الجديدة، نعم، الصبغة الجديدة التي تلون كل شيء لتمنحه شكلا جديدا، لتمنحه شكلا مغايرا مختلفا، وهو ما يمثل التجربة الظاهرية التي لا ينكرها سوي

عاطفي عاجز عن تقبل الحقيقة، الحقيقة الصعبة التي تطوع بواسطة مرونتنا، مرونتنا نحن، نعم، مرونتنا نحن.

إن الذاتية الشديدة تجعلنا عاجزين عن تقبل الحقيقة، نعم، أنت تري أن أباك هو أفضل أب وأن أمك هي أفضل أم، رغم أن الحقيقة قد لا تكون علي هذه الهيئة، لكن ذاتيتك تجعلك تري ذلك، والأمر نفسه بالنسبة إلي ابنك وأفراد عائلتك وأستاذك، وغيرها من العناصر التي تطغي ذاتيتك عليها، نعم، تطغي عليها وعلي نفسك، فتعتقد أن تجربتك تمثل الكل، رغم أن هناك قصورا لا مهرب منه، وهو ما يحتاج التفحص والإدراك، إلا أن تعبيرك عن عواطفك يتطلب هذا القصور، وهو قصور قد يعيق عقلك عن تقبل الحقيقة، ولهذا قد تصف من يتحدثون عن الحقيقة كثيرا بالمجانين، لأنهم يحاولون أن يتجاوزوا العواطف، والكثير من أمور الواقع منافية للعاطفة والذات، وهو ما يعد تحديا كبيرا من تحديات الوجود، الوجود الذي يستعصي فهمه علي أذهاننا، أذهاننا التي أنهكت بفعل الكثير من العوامل وبفعل الإجهاد الخلوي وبفعل التقدم في السن، نعم، التقدم في السن الذي يجعلك في حالة دائمة من الاستفسار عن ماهية كفاحك وأحلامك وأوهامك، أوهامك التي اختلطت باللذة والشهوات والصراع والغرور والاضطراب النفسي والإرهاق، فصرت أسيرا لأمور كان من الأفضل ألا تتنقل بينها بهذه الكيفية، كان من الأفضل ألا تجاريها مثلما فعلت، لكن الأمر قد حدث وانتهي المشوار.

إن حديثي عن الذاتية والتغير متعلق بحقيقة أن الذاتية قد تنأي بنفسها عن التغير في الكثير من الأحيان، وهو ما يعد أمرا ملموسا عندما نتأمل حال الكثيرين، كما أنني قد تطرقت إلى التغير على وجه التحديد، لأن تجربتي كانت أشبه بأمواج البحر علي الدوام،

كانت حالة من التغير الدائم، وها هي تستمر على هذا المنوال، حيث أنني واقع في شبكة شكلت خيوطها من التغير والتلاشي كما ترون.

استمرت الأفكار في ملاعبتي، كنت أتنقل بينها كالمجنون الذي لا يعرف استقرارا، كنت أسيرا لأفكار كثيرة، حتى ظننت أنني قد وقعت في فخ الذاتية، ذلك الفخ الذي وقع فيه الكثيرون، ذلك الفخ الذي اعتاده العديدون حتى ظنوه أمرا طبيعيا، حتى ظنوا أنه من الطبيعي أن تأخذ حيواتهم هذا المنوال وهذه الشاكلة.

أراقب حياتي بعينين بشريتين، أراقبها محاولا التأقلم معها ومنحها درجة من المصداقية والصلاحية، تلك الصلاحية التي نسعى نحو بلوغها معتمدين على المجتمع والآخرين، رغم أنها تؤخذ بشكل رئيسي منا، تؤخذ بشكل مباشر من أنفسنا ومن عقولنا، ورغم ذلك، علينا ألا نمنح الأمر الاقتناع التام، لأننا بهذه الصورة نكون قد وقعنا في فخ الذاتية، ذلك الفخ الذي قضيت وقتا طويلا محاولا التخلص منه وتمنيت عدم الوقوع فيه من الأساس.

كان الاضطراب ينبثق من كل جارحة في جسمي، كان الفزع يلاحقني طوال حياتي، لكن وطأته قد اشتدت في الآونة الأخيرة حينما وصلت بوعي خالص إلي حالة من الازدراء الفكري، حالة قد وصلت إليها بعد أن وصلت تجربتي إلى هذا المنعطف الغريب، المنعطف الذي تمثل في أمر الظاهرة، تلك الظاهرة التي كان الجميع يشارك فيها بشكل مباشر ومستمر دون كلل أو تعب، وهو ما كان يجبرني على الانضمام إليهم في الكثير من الأحيان.

عندما تتأمل فتاة جميلة تقف أمامك بملبسها الداخلي وحمالة صدرها، فإنك ترغب في تخليصها من ردائها معتمدا علي شهوانيتك

التي من الضروري التحكم بها، لكن ما تعجز عن إدراكه يتمثل في حقيقة أنه بمجرد أن تخلصها مما تلبس، سيفقد الأمر بريقه ويخلص سريعا، وهكذا هو الحال مع الظاهرة، فإذا حلت الملابسات التي تحوطها، انتهي الأمر ووجب عليك الرحيل، كما أن الأمر مشابه بالنسبة إلي الحياة بشكل عام، حيث أننا بمجرد أن نفقد الفضول ونقضي علي الغموض، تصبح الصلاحية محل انتهاء، وهو ما يشير إلي حقيقة أن الوجود والتحرك إلي الأمام في حاجة إلي غموض، نعم، الغموض مهم للغاية، الغموض بمثابة الإثارة، الغموض هو ما يحركنا، ويلاعب دوافعنا، ويجاري خصائصنا، تلك الخصائص التي تحاول أن تواكب ما يمكن مواكبته، وفي الوقت عينه تعجز عن الوصول إلي الكثير من الأشياء، وفي اللحظة التي يمكننا أن نتقدم إلي الأمام بينما يحوطنا الغموض، نصبح في حالة من التصالح التام مع مجريات الحياة، لأن التحرك في وجود الغموض بمثابة الأساس، ولأن أمور الوجود تنقسم إلي قسمين، أحدهما يتصل بالفهم والآخر يتصل بعدم الفهم والمرور دون رغبة في الإدراك، وهو ما يمثل المنطق الذي يشمل الكل ولا يستثني أحدا في حقيقة الأمر، لا يستثني أحدا بأي شكل من الأشكال.

-٢٥-

جاءتني العجوز، نال مني الأرق، جلست أحاورها عن الكثير من الأمور، بينما كان المواء مستمرا بشكل غريب، كان لا يعرف الانقطاع، وقد زادت مدته بشكل ملحوظ، وكان مزعجا بشكل كبير.

وجدتها قد تحولت إلى اللعوب، وقد قفزت باتجاهي وتخلصت مما لديها وشرعت في مضاجعتي حتى كدت أن أصاب بالإغماء من فرط شدتها وتلون حركاتها ودأب ملاعباتها، وكان المواء يصاحب أفعالها بصورة درامية موسيقية خلابة، وكأن الكوريوجرافي قد تعلم منها وكأنها كانت قنبلة فتاكة قادرة على نسف مدينة بأكملها بعد أن أغرتها بمفاتنها، وكأنها كانت أشبه بوردة قد منحت إياها لأكتشف فيما بعد أنني قد عجزت عن استنشاق عطرها بشكل مثمر، نعم، كانت مفاتنها أقوي من أن تدرك وكانت ملامحها أعظم من أن تحس، كانت كعنقود عنب قد فرط وطلب مني أن ألمه، إلا إنه كان عنقودا طويلا، كان طويلا للغاية، فعجزت عن جمع حباته.

كان المواء لا يعرف انقطاعا، كان صاخبا هذه المرة، وقد عادت اللعوب إلى صورتها الأخرى، فوجدتها قد اتخذت هيئة العجوز وجلست تحدثني وكأننا لم نكن نفعل أي شيء بأي شكل من الأشكال، كانت غريبة عجيبة، كانت تتحدث دون توقف، وقد فزعت لما رأيت، ونالت مني مشاعر مفعمة باللخبطة والهياج، إلا إنني كنت أبرر ما يحدث معتمدا علي أمر الخيالات، لكن أمر الخيالات شأنه مختلف بين الأناس، فربما يكون ما رأيت واقعيا وربما يكون خياليا، لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، لكن ما أعرفه حقا يتمثل في

حقيقة أن كل البشر يصلون إلي مرحلة معينة في سن محددة، مرحلة معينة أطلق عليها اسم مرحلة الغموض، مرحلة التأقلم مع الغموض، علي وجه التحديد، وحينها تستمر القصة رغم العجز عن التعامل مع الغموض، ورغم ذلك قد يكون الغموض بمثابة المحرك بالنسبة إلي الكثيرين، وكلما كنت قادرا علي مواكبة الغموض والقلق، كنت أكثر قدرة علي التقدم إلي الأمام بقوة وفي ثبات.

-٢٦-

حلت صحفية لذيذة كضيفة على الحي، كانت جميلة رشيقة، كانت ذات نهدين غريبين، كانت ذات شعر أرجواني مصبوغ، وكان الذكاء يلمع من عينيها، وقد حلت لتحل المشكلة معي، حلت لتساعدني في حل القضية، والوصول إلي مفتاح فيما يخص شأن الظاهرة.

سكنت شقة من شقق العمارة، وكنا نتشارك الحديث كثيرا، وكان اسمها زارا، كان اسم الدلع في حقيقة الأمر، وقد انسجمنا بشكل ملحوظ، إلا إنها كانت تضحك باستمرار، ولم أكن أحب الضحك كثيرا، كنت أري أن الضحك الكثير يعبر عن مشاكل عميقة وصراعات دفينة تخرج على هيئة ضحكة كنوع من التعويض والترويح والهروب.

الحياة أشبه بالفتيات، فالفتيات يغطين وجوهن بالميك أب، لكنه بمجرد أن يمسح، يقل البريق، وعندما تتأمل الكثير من الأمور، ستجد أنها تسير على نفس المنوال، ورغم ذلك، يربطك بها أكثر من الشكل والهيئة، يربطك بها شيء لا تفهمه، تربطك الألفة وتقيدك المحبة، ولكن هل تعد المحبة قيدا؟ لا أعرف، ربما تمثل قيدا في بعض الأحيان، لكنها تمثل أساس التجربة كما تعلمون، فالمرء يبحث عمن يحبه، المرء يبحث عن الرفقة، والرفقة تمثل كل شيء كما تعلمون.

إن الضباب يسيطر على التجربة، لكن الرفقة تقلل من وطأته والمخاوف التي تجابهنا في ظله، أما من يسير وحيدا، فإنه يشعر ببرود شديد بينما يعبر الجسر، وهو ما يعد أمرا حزينا بكل تأكيد،

لأن الرفقة تساعد الإنسان على التحدث بينما يتقدم إلى الأمام، فلا يلتفت كثيرا إلى الصعوبات، وإذا هاجمته، تحدث بها إلى صديقه ورفيقه.

كانت الصحفية بمثابة الرفيقة والحبيبة في هذا الوقت، كانت تساندني وتقف إلى جانبي، وقد تشكلت علاقة بيننا، علاقة لم تكن حميمية بالشكل الكامل، لكنها كانت حميمية بصورة جزئية قاصرة، بمعني أننا قد اعتدنا التزاور دون تجاوز شديد، إلا أن الأمر كانت شدته تزداد في بعض الأحيان.

في ليلة باردة، زارتني صديقتي في شقتي، كانت تتحدث دون توقف، كانت تتنقل بين الموضوعات في شراهة واضحة وبصورة قوية، كانت واثقة في نفسها بشكل لا يصدق، لكنها في الوقت عينه كانت ذات عاطفية متأرجحة، تلك العاطفية التي تتلاعب بنا وبعقولنا فتجعلنا نخرج عن السياق في الكثير من الأحيان.

دارت الكثير من الأحاديث بيننا، كانت لا تتوقف، كانت تتنقل بين أفكار عديدة وموضوعات كثيرة وأمور لا حصر لها، وقد أنصت إليها وأنصتت إلي، فتسلل الدفء إلى المكان بشكل واضح.

تحدثت معي عن حقيقة أن اللذة تصبح مضنية مع الوقت، وحينها تطلب حيواتنا منا أن نغير طريقة تعاملنا معها، فندمج اللذة مع التضحية والمجهود، كما أن التضحية التقليدية تتمثل في إنشاء أسرة وتربية الأطفال، وهو ما يعمد إليه أغلب الناس، وقد تابعت كلماتها موضحة أننا نفقد الإحساس بأننا ذوات خصوصية مع الوقت، وكأن الكون يرسل إلينا رسالة ليخبرنا بأننا أشخاص عاديون، ليخبرنا بأننا جزء في المليون، ليخبرنا بأن العالم أكبر منا وأوسع وأكثر عرضا، وهو ما يدخلنا في حلقة مفرغة مكونة من فضول لا يرضي وغرور لا يشبع.

أخبرتها بأن الاهتمام بالجزيئات والأجزاء يجعلنا في غفلة حينما يتعلق الأمر بالكليات، فالإنسان ينشغل بالتفاصيل والأمور الصغيرة لينسى الكبيرة، وهو ما يجعلنا نتحرك في دوامة كبيرة لا يمكننا أن نخرج منها بسهولة، ويمثل العمل الدوامة الكبرى التي تفصل

البشر عن التفكير بالكليات، كما أن الانشغال بالتفاهات والأمور الترويحية يجعلنا أكثر قدرة على عدم الالتفات إلى الحقيقة المخيفة، تلك الحقيقة التي يمثل تلاشينا جزءا منها.

تابعت كلماتي ليلتها بينما كنت أشرب عصير العنب الأبيض وكانت هي تشرب عصير العنب الأحمر، وقد أخبرتها بأن الإنسان في صغره يبحث عن اللذة، وفي منتصف الطريق يبدأ في العمل على اعتدالها ويشرع في التضحية مجبرا، وإلا صار دربه نوعا من العبث الظاهر والهراء البارز، فالتضحية إجبار، ولها أشكال تقليدية عديدة، ومن يصمم على اللذة وحدها، ينهك، ومن يصمم على التضحية وحدها، ينهك، لكن الدمج بينهما في سن معينة بمثابة الإجبار، وإلا صار المرء منبوذا من قبل المجتمع والعائلة والبيئة التي تحوطه.

وضحت لها أن الإنسان يتحرك ليرضي دوافعه ورغباته ويعمل من أجل متطلباته، لكنه في وقت معين يجبر على أن يتخلى عن نهجه المتبع، يجبر على التضحية، يجبر على أن يقدم للآخرين أمورا مهمة وأن يعمل من أجلهم، وقد لا يمثل الأمر حالة من الإجبار بالنسبة إلى الكثيرين، خاصة هؤلاء الذين يدركون أهمية التضحية ويستمتعون بالعمل من أجل الآخرين ومن أجل سعادتهم ومتطلباتهم.

لقد أخبرتها بأن كيمياء الدماغ تتغير مع الوقت، ومن الممكن أن تحضر حفلة ذات أجواء معينة في صغرك بحماسة تفتقر إليها إذا تكرر الأمر في كبرك، ولهذا يمثل الأمر تحديا كبيرا وتعقيدا عظيما، فالتجربة ليست بخارجية فحسب، لكنها متصلة أيضا بالدواخل وبطريقة تعامل الدواخل مع الخارج، كما أن الدواخل تمثل الأساس في معظم الأحيان، ولا يمكن للخارج أن يسيطر علي الدواخل بشكل مباشر في كل مرة، بمعني أن تغيير الخارج ليس بالضرورة أن يؤثر في الداخل، أما تغيير الدواخل، فإنه حتما سيؤثر

في الخارج وسيؤثر علي طريقتنا في الحياة ونظرتنا بشكل كلي وجزئي.

حركت فخذيها في ارتياح تام بعد أن رفعت فستانها وكشفت عنهما، وقد اقتربت مني وأخبرتني بأنني أبالغ في شأن الأمور وأرهق نفسي بالكثير من الأفكار وأسمح لمتاهات العقل بأن تتلاعب بي بشكل مخيف، لكن ما أثر في، لم يتمثل في كلماتها، لكنه تمثل في عينيها الجميلتين اللتين حركتا فؤادي وأحدثتا شرارة برزت بداخلي فتسللت إلي جميع أجزاء جسمي فمنحتني حماسة لا توصف، وقد قبلتها فقبلتني، واستمرت القبلات لمدة طويلة حتي أرهقنا، وقد أخبرتني بأن الإرهاق قد نال منها وبأنه من الواجب عليها أن تنزل إلي شقتها، فسمحت لها، لكن غيابها أثر في دواخلي، ورغبت لو أن الجلسة لم تنته، وسعدت بحضورها ووجودها حتي كدت أن أطير من مقعدي، نعم، إنها سذاجة الرجال كما تعلمون، تلك السذاجة التي تأخذهم إلي الهاوية في نهاية المطاف.

في اليوم التالي، جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور، أخبرتني بأننا نكون أسري لما نحب ونرغب، وضحت لي أن الإنسان يصبح عبدا للمال وليس سيدا مع الوقت، يصبح عبدا للجنس كالبهيمة، يصبح عبدا للشهوات، يصبح عبدا للطعام كالوحش الذي لا يشبع، يصبح عبدا للغرور الذي لا يرضي، يصبح عبدا للعروض التي لا تعرف نهاية، فوضحت لها أن التعميم باطل، وأن هناك من يجيدون تنظيم الأمور والوصول إلي حالة من الاعتدال فيما يخص كل شيء في حيواتهم، لأن الزيادة عن الحد المطلوب تمثل زيادة منهكة ومؤذية، فيصبح الأمر أشبه بشرب الماء رغم بلوغ الارتواء، فيفقد الإرضاء وتغيب المتعة.

اعتدلت في جلستها وانضمت إلى فوق الأريكة، وأخبرتني بأن مشكلة الإنسان تكمن في الملل، إنه في حاجة دائمة إلى الرغبات المتجددة، تلك الرغبات التي تنهكه على طول الطريق ورغم ذلك يسايرها منعا للملل، إلا أن الملل لن يفارقنا مهما فعلنا، لأنها طبيعة الدنيا، تلك الطبيعة القائمة على التأرجح بين البلوغ والملل، فلا مهرب ولا مفر، ورغم ذلك من الممكن أن يوازن المرء الأمور ويتأمل الأشياء وفقا لحجمها الطبيعي دون حالة من الكالوبسيا ودون حالة من الفومو التي كثيرا ما تباغت الجميع.

أخبرتها بأن كثرة السكر ممتعة في البداية لكنها تخفض المزاج في النهاية، وأن عد المال ممتع في البداية مرهق للأذهان في النهاية، وأن كثرة النساء ممتعة في بادئة الأمر مميتة ومرهقة للأعصاب في نهايته، وأن التلذذ بالتحدث رائع لكنه يتحول إلى ضجيج وهراء مع

الوقت، وأن جمع الأشياء يمتعنا لكنه يرهقنا مع التنظيم والإحصاء، وأن الملبس سهل التنظيم في الصغر مرهق في الكبر، وأن الرغبات تحركنا بحماسة في أول الأمر إلا أن الحماسة تقتل مع الوقت.

الطاقة تتغير مع الوقت يا عزيزتي، الطاقة تتغير، نحن نتغير وتتشكل شخصية جديدة لنا كل عقد، ونصبح أناسا آخرين بصفات جديدة وطاقات مختلفة وصراعات متعددة وفضول ذي درجات متفاوتة، وربما يفقد الفضول فنصبح مظلمين، نصبح مظلمي الدواخل، ورغم ذلك قد تباغتنا شرارة الإشراق والأمل بين الحين والآخر فتنعشنا، وهو ما يرغبه كل إنسان، فالشرارة لا تزورنا كثيرا مع مرور الزمان، لكننا نرضي بعدد المرات التي تزورنا فيها، نرضي بالقليل منها، نرضي بالزيارة حتي ولو كان تكرارها قد قل مقارنة بالماضي، والرضا في هذه الحالة رضا تلقائي، ولا يحمل أي طابع إجباري، لأن بوجود الإجبار يفقد الرضا طعمه، وهو ما يمثل المنطقي.

هكذا حدثتها بينما كنت أشرب مشروب الشاي بالنعناع، وقد تناولت بعدها بار الشوكولا البولندي بالبراوني، وأكملت الأمر حينما اتجهت إلى مطبخها وأعددت فطيرة المربي بزبدة فول السوداني، فأخبرتني بأن وزني قد زاد وأن الضغط يولد الرغبة في الأكل بشراهة وأن كثرة التفكير تطلب مني الطاقة لعلني أسايرها، ورغم ذلك قد يمثل الأمر النقيض عند الكثيرين.

وضحت لها أنني لم أتناول الكثير من الطعام في حقيقة الأمر، وأن ما أعده لا يمثل سوي وجبة صغيرة سريعة، وقد سألتها إذا رغبت في

البعض فرفضت، وقد عدت إلى حلقة النقاش مجددا وتابعت الحديث، إلا أن موضوعا جديدا قد حل وفكرا مستحدثا قد بلغ.

في منتصف المساء، كنا بشقتي، وكانت العجوز تجلس معنا، وكنا نتحدث عن الكثير من الأمور المتنوعة، وقد كان من بينها الانهيار الاقتصادي الذي نعيشه وارتفاع الأسعار المثير للسخرية، وقضية فلسطين وبربرية الغرب التي كشف عنها بعد أن سقطت الأقنعة، وأسعار السيارات الجديدة، وانفتاحية العلاقات والثقافات، وهراء التجربة البشرية، والمعني والحساب، والفكر الذاتي والمركزية عند الإنسان، وقد توقفت الكلمات حينما حل المواء.

لقد اكتشفت أن العجوز كانت تشارك أحيانا في المواء، وكانت لا تشارك أحيانا أخري، وقد شعرنا بقشعريرة ليلتها لأنه قد اتخذ شكلا أكثر غرابة، وكان الناس يتهافتون على الحي من أجله، كانت الأعداد في زيادة وكانت القطط تضحك، كانت تقهقه، لأنها وجدت كائنات عديدة تقدم على أفعال كانت تظن يوما بأنها لن تقدم على فعلها، وقد تأملت المشهد من الشباك بينما كانت الشابة تقف إلى جانبي وكانت العجوز جالسة بالداخل.

كانت القطط تقهقه، كانت تفعل ما يناسب طبيعتها في الوقت الذي وجدت فيه كائنات أخري تشاركها طبيعتها، وهو ما مثل استفهاما بالنسبة لها، ورغم ذلك لم تمانع المشاركة، لكن القطط كانت أكثر ذكاء، فقد خضعت منذ البداية، لم تتمرد، لم تغتر، لم تدع شيئا لا يناسبها، ولم تطلب العظمة، لأنها كانت علي علم بأنها لا تخصها ولم تخصها يوما ولن تخصها أبدا.

أما نحن، فقد كنا متأرجحين، كنا مغرورين، كنا نساير أوهامنا، تلك الأوهام التي لا حصر لها، تلك الأوهام التي تأكلنا مع الوقت، تلك الأوهام التي تحولنا إلى رماد في نهاية المطاف، ورغم ذلك لا مفر من التعامل معها، و لا مناص من فهمها ومحاولة التأقلم معها قدر الإمكان دون ضرر واضح أو ضجر بارح.

دعتنا العجوز إلى شقتها، جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور، أخبرتنا بأن زوجها الراحل كان طيبا للغاية، وقد تابعت كلماتها موضحة أن الزواج يتطلب كبت بعض الأفكار، فالعقل اللاواعي للذكر يكبت بعض الأمور والعقل اللاواعي للأنثي يكبت بعض الأمور، وهكذا تسير الأمور على ما يرام قدر الإمكان، ويحدث التوافق لمدة طويلة قبل أن يحدث الانقطاع الإجباري الذي لا مفر منه، ورغم ذلك من الضروري أن نركز على الشأن الإيجابي بشكل ما.

أخبرتنا بأن زوجها كان كاتبا مغمورا، ألف الكثير من الكتب، لكنها لم تحظ بجمهور ولم تتوافر على الإنترنت، واختفت بشكل رهيب، حتي صارت رمادا مثله تماما، نعم، آلت إلي التلاشي والاختفاء التام، إلا إنها قد رأت أن الإرث البشري مآله إلي التلاشي أيضا، وأن الحضارات تنهار في النهاية، وأن كل شيء يضمحل، وأن الكثرة تقلل المعني وتفقد البشر الخصوصية وتجعل منهم أجيالا تورث الأمور دون ثبات أو إحساس حقيقي يمكنها من الشعور الدائم بالفوز، لأن الخلود لم يكتب لنا، ولأن التمرد أدخلنا في دوامة من الإحساسات المتناقضة، تلك الإحساسات التي تتراوح بين النصر والخسارة، بين الاستقرار والتأرجح، بين الفرح والحزن، بين الانغماس في اللحظة والإحساس بضرورة الفناء، بين الإحساس

بالوجود والإحساس بالفوات، وهو ما يراود كل إنسان يتحرك علي سطح هذه الأرض، مهما أظهر البعض غير ذلك، مهما أظهر البعض غير ذلك.

انتهت الجلسة وغادرنا بينما كانت الشابة الصحفية صامتة في معظم الوقت، وقد سألتها عن سر صمتها لاحقا، فأخبرتني بأنها قد تذكرت بعض الأشياء التي كانت تضايقها في صغرها، في مراهقتها على وجه التحديد.

الجزء الثالث من الرواية
(خيالات وصراعات)

-٣١-

في الصباح الباكر، جلست الشابة تحدثني في شقتها عن الظاهرة، أخبرتني بأن الأمر غريب مفعم بالغموض وكل ما هو عجيب، وقد رأت أن الأمر لن يحل بسهولة وأن الجمع لن يتوقف عما يفعل إلا إذا تغير رأيه وتحور فكره، وقد أنهت التحدث فيما يخص الأمر المهم سريعا، وعمدت إلى التحدث عما كان يضايقها في سن المراهقة، لتستفيد من خبراتي التحليلية العديدة التي عرفت بها منذ صغري. يبدو أننا نشغل أنفسنا بالأمور الهامشية لنقلل من صراعاتنا التفكيرية الخاصة بالأمور المهمة، وهو ما يقدم عليه الجميع.

اعتدلت في جلستها، بينما كانت ترتدي جونلة قصيرة رغم برودة الشتاء، وقد قربت فخذيها من بعضهما البعض، وجلست تحدثني عن الكثير من أمور مراهقتها وصراعاتها، عندما كانت صغيرة، وكان الحديث ممتعا بينما كانت القرفة تمنح جلستنا نوعا من الدفء والحماسة المشتعلة.

أخبرتني بأن هناك نظاما بالمخ يتخلص من الكثير من المعلومات والذكريات ليسمح بمساحة من أجل المعلومات والمواقف الجديدة، وضحت لي أن المراهق الذي يعجز عن الزواج بحبيبته الأولي ينسي كل شيء مع الوقت، وعندما يتزوج بفتاة أخري يحب تجربته الجديدة ويتكيف معها وتصبح الذكريات الجديدة بمثابة البديل والصورة الأكثر ترسيخا، ولو أن هناك مساحة لبعض الذكريات الماضية التي تطارده، فإنها تكون مساحة صغيرة ذات تأثيرات ليست بالعاطفية، بمعني أن هناك احتمالا كبيرا بعدم التفاعل العاطفي مع الذكريات البسيطة التي تطارده، وهو ما يجعل تجربتنا أشبه بشقلب

واقلب أو أشبه بأمواج البحر التي تحل محل بعضها البعض، فالوعي يضخم الكثير من الأمور، والكثير من الأمور التي كانت ضخمة وقتها تصبح بلا قيمة في المستقبل، ومن الممكن لمشكلة عويصة أن تنسي في المستقبل بشكل كامل، ومن الممكن لما أرهقت عقلك به في سن معينة أن يصبح محلا للاستصغار والسخرية في سن أخري متقدمة، وهو أمر متصل بكيمياء الدماغ والجينات والطبيعة البيولوجية للإنسان والزمان الذي يقتل كل شيء، فتصبح اللحظات ضربا من العبث ونوعا من البخار الذي لا يمسك.

أخبرتني بأنها قد أحبت شابا في صغرها، وها هي قد نسته تماما، وكأنها لم تقابله أو تعرفه قط، وضحت لي أن الكثير من ذكريات طفولتها قد تلاشت، بينت لي أن الزمن يجعلنا ننسي كل شيء في النهاية وأن ما يبقي قد لا نتفاعل معه عاطفيا بالشكل اللائق، إلا أن ذكريات الأب والأم تعد من الذكريات القليلة التي لا تنسي، وقد تابعت كلماتها وأخبرتني بأن الإدراك البشري ليس كما نراه، فالإدراك يرهق مع الوقت، كما أن الإجهاد الخلوي مأزق آخر، وفي الوقت عينه لا يمكننا أن نتجاهل كثرة الأفكار والمعلومات والحوارات في هذا الزمان وفي كل زمان، مما يجعل الوعي عشوائيا في نهاية المطاف، رغم أن التجربة نفسها ليست بعشوائية لكن الإدراك القاصر يجعلها عشوائية في وجهة نظرنا نحن.

صفقت من أجلها وعبرت عن إعجابي بفكرها ومعلوماتها، وقد وضحت لها أن هناك من يرغب في أن ينسي أمورا دون أخري ورغم ذلك لا ينجح في ذلك، وأن هناك من يرغب في تذكر أشياء يعجز عن تذكرها، وأن الوعي يلاعبنا بشكل لا يصدق، وأن المدارك البشرية ليست مفهومة بالشكل الكامل، وأن الوعي القاصر يجعلنا

في حالة من الانعزالية فيما يخص الكثير من التجارب في الكثير من الأحيان، وهو ما يثير الكثير من الأسئلة حيال التجربة وأهمية اللحظة وقدرة الإنسان علي إدراك كل شيء، ورغم ذلك لا يمكننا أن ننكر حقيقة أن الإنسان مهما طال عمره لا يمكنه أن يجرب كل شيء ولا يمكنه أن يستمتع بمميزات الخلود لأن تجربته قد فرطت وصرنا كائنات فرط، بمعني أننا قد صرنا نورث التجربة لكن من المستحيل لأي إنسان أن يستمتع بالأمر وحده ومن المستحيل أن يستمتع المرء بالخلود في هذه الدنيا، لأننا كائنات فرط شأنها كما قلت مسبقا، وقد مثل مشروع الخلود أكبر مشروع للإنسان، لكنه قد جبل علي الفشل، وها هي التجربة تعاد في تكرار مع كل إنسان، مع كل مولود، مع كل ميت.

أخبرتني بأنها تري أن الإنسان لم تقتصر خطيئته علي الرغبة في الخلود وأمر الشجرة فحسب، لكنها تمثلت في الكثير من العناصر الأخرى، وقد بينت لي أنها قد غفرت وفقا للفكر الإسلامي ولا تعد مبررا للمزيد من الأخطاء، ورغم ذلك اتصلت طبيعة الإنسان بالخطأ، ومن الممكن تأملها بداية من المراهقين الصغار الذين يعتدون علي الأخلاق والمنظومة ومرورا بالشباب المتكالبين علي السلطة والمال والنفوذ والنساء والكثير من الأشياء الأخرى وانتهاء بالشيخ الذي يشعر بأن الدنيا قد فاتته ويرغب في المزيد، ورغم ذلك هناك من يصلون إلي حالة من المعرفة في سن معينة، فيصبح سلوكهم أكثر رشدا ويصبح جهلهم أمرا قديما وتصبح معرفتهم واضحة وضوح الشمس في كبد السماء.

إن المعرفة رائعة، إنها تمثل اللذة الأعمق على سطح هذه الأرض، إن لذتها لا تقارن، وهي لذة تزداد كلما كان الأمر روحانيا، فالاكتفاء

العلمي لا يمثل اللذة الكاملة، لكن اللذة العلمية الروحانية لا تقارن، لا تقارن، لا تقارن.

ومن كان جاهلا، يسعد بقدوم العلم إليه، ويرهق عندما يدرك أن ما جاءه لم يكن سوي أمر صغير، لكنه يتكيف مع الوقت، ويساير التجربة رغم العجز، العجز الذي يخص القدرة على إرضاء كل الجوانب الخاصة بالمعرفة والفضول، لكن الإدراك البشري محدود في حقيقة الأمر، إلا أن هناك لذة متصلة باتساعه، وهو اتساع ذو حدود، لكن على المرء أن يصل بفكره إلي أكبر درجة ممكنة، وهو ما يمنحه القدرة على التقدم إلى الأمام.

نقلت إليها هذه الكلمات، وقد قدمت إليها مشروب القهوة الفيتنامية، وأنهينا الجلسة، وغادرنا المكان سريعا.

لقد كثفنا الجهود فيما يخص أمر الظاهرة، وقد عملنا على التنقل بين أبناء الحي، لكنهم عجزوا عن تزويدنا بالمطلوب، رغم أنهم كانوا يشاركون في الظاهرة باستمرار، وهو ما مثل أمرا غريبا، إلا إنهم كان يشعرون بالراحة بداخلهم بعد كل مشاركة، وكانت هناك الكثير من الدلائل التي تدعم ظاهرتهم وتساند أفعالهم وتمنحهم نوعا من السكينة والطمأنينة حيال ما كانوا يقدمون على فعله.

لم يقتصر الأمر علي الخضوع فحسب، لكن كان هناك ما يدعم موقفهم وكان هناك نوع من اللذة الروحية التي لا تدرك سوي مع هذا الأمر، وهو ما جعلني أتساءل كثيرا حيال التصرفات البشرية والتحركات الإنسانية والأفعال التي يقدم البشر علي فعلها حتي ولو

عجزوا عن فهمها بصورة كاملة، لكنني اكتشفت في نهاية المطاف، أن الأمور لا تفهم بالشكل الكامل، وحتي الأمور التقليدية التي نعيشها بصورة يومية، فإنها لا تفهم بالشكل الكامل، وهو ما يبث الفضول حيال التجربة البشرية بشكل عام، لكنه يصبح فضولا مدحضا بهذه الصورة، لأنه فضول كلي لم يقتصر علي تخصص معين يمكن تفحصه والاهتمام به وحده دون التخصصات الأخرى، إلا أن المسايرة في هذه الحالة تعد مسايرة متصلة بإدراك أي شيء مهما كانت النتيجة ومهما كانت درجة العشوائية.

جلست العجوز تحدثنا عن بعض حكمها وأُفكارها، وقد تآلفت معها رغم شكوكي تجاهها ورغم خوفي منها، وقد حدثتنا عن أنها قد رأت طفلين بالحديقة في يوم من الأيام، وقد كان أحدهما يضع الحجر الصغير في الطريق، وقد مر الآخر وأماط الأذي عن الطريق، لكنه بمجرد أن غادر، أحضر الأول حجرا جديدا وقذفه ناحية الممر، وبهذه الصورة يكون الفعل قد عجز عن التأثير، لكنها وضحت أن المطلوب من الإنسان يتمثل في الإقدام علي الفعل الطيب حتي ولو كان هذا الفعل عاجزا عن تغيير العالم، وبهذه الصورة يصبح الإنسان مطالبا بالفعل الطيب لا أكثر ولا أقل، أما ما يليه ويمحوه، فإن أمره لا يخص الفرد، فالأمر بأكمله متعلق بالنية والرغبة في فعل الخير، لا أكثر ولا أقل، لأن التجربة الظاهرية تخبرنا بأن كل شيء يجرف في النهاية ويعاد صياغته منذ البداية، وبالتالي لا يمثل الخراب أمرا جللا بالنسبة إلي الوجود، لأن الوجود يجدد نفسه باستمرار بالتخلص والإضافة.

اتفقت معها ووضحت لها أن كلماتها تمثل الصواب، لكنني لا أثق في عقليتي بالشكل الكامل لأحكم على كلماتها، لكن ما على فعله يتمثل في التفاعل، والتفاعل يحمل بداخله نوعا من القصور، وقد تتسلل الذاتية إلى الكلمات فتقدم قصورا بشكل أكبر، وبالتالي لا يمكننا أن نثق في عقلية شخص بالشكل الكامل، حتي ولو كان شديد الذكاء، لأن الوعي مضطرب لا يحمل نغمة ثابتة علي طول الطريق، وبالعودة إلي كلماتها، فإنني قد أخبرتها بأن الفعل الطيب يتطلب مجهودا مثله مثل الفعل الخبيث، لكن الفكرة في التعود والاستمتاع بالفعل ذي النوعية الطيبة، فمن الممكن لمن

يستمتع بفعل خبيث أن يتخلص منه عندما يستبدل المتعة بمتعة فعل طيب، وحينها يصبح الأمر منسجما للغاية، لأنه صار متأقلما مع فعل طيب يضيف الخير إلي رصيده وفي والوقت عينه يضيف المتعة والسعادة.

أخبرتنا الصحفية بأنها كانت تقدم على أفعال خبيثة في صغرها، لكنها عندما كبرت أدركت أن الأمر لم يستحق كل هذا، وأنه كان من الأفضل لها أن تسير على الطريق الصحيح منذ البداية لكنها تعلمت من الخطأ وأدركت الصواب وعرفت بداخلها أنه من المستحيل أن تعود إلى أفعالها الخبيثة، وقد أدركت ذلك عندما تخلصت من جهلها، لكن المعجزة كمنت في اللحظة التي ساعدتها على ذلك.

هناك لحظات تغير الإنسان بشكل كبير، هناك لحظات قادرة على التأثير، وكم من رجل تغير حاله في لحظة، وكم من امرأة تغيرت ظروفها في لحظة، وكم من إنسان أدرك أمورا محورية خصت تجربته في لحظة كانت فارقة بالنسبة إليه، رغم أنها لم تكن فارقة بالنسبة إلى الوجود.

هكذا أخبرتهما، لكنني وضحت أن الإنسان ذو تجربة قاصرة، ويحاول باستمرار أن يظهر العكس، لكنه قدره وشأن تجربته، نعم، كل البشر أصحاب تجارب قاصرة، ورغم ذلك يخبرهم غرورهم أنهم قد وصلوا إلي الكثير من الأشياء، لكنهم لم يصلوا إلي شيء في حقيقة الأمر، لكن الغرور يخبرهم بذلك حتي يواصلوا، لأنهم إن أحسوا بعدم الوصول باستمرار أنهكوا، لكن النقص في الوقت عينه يحركهم ويمدهم بالرغبات التي تنهكهم، لكن هناك لذة تصاحب

الإنهاك، ورغم ذلك لو زادت الرغبات عن اللازم أصيب الإنسان بالإرهاق والفتور وعدم القدرة علي المواصلة، كمن ملأ سيارته بحمل لا يناسبها ومن أضاف إلي نفسه أعباء لا تناسبه ومن حمل نفسه عواقب أفعال إنسان آخر ومن أرهق حبيبه بعواطف زائدة عن اللزوم ومن تجاوز الحدود بشكل عام، ففي الاعتدال، تكمن النجاة، وفي التطرف، يكمن الهلاك.

-٣٣-

تغيرت طبيعة الخيالات والأحلام، اتخذت شكلا جديدا، تحورت وتطورت، وهكذا هو الحال مع كل شيء في حيواتنا، ولو أنني قد تابعت كل شيء عن كثب لأدركت أن التغير بمثابة الأمر الوحيد الثابت في هذه الحياة، كما أن النفس تأخذ وقتا طويلا قبل أن تدرك تلك الحقيقة وقبل أن تتفاعل معها بمرونة تامة.

لقد رحلت العجوز عن عالمنا في منتصف الليل بينما كانت الهررة تموء بشكل غريب، رحلت كنتيجة للسن دون أي مقدمات تذكر، وقد حزن الحي من أجلها لفترة ثم نسي أمرها، وهكذا هو الحال مع كل إنسان وكل شيء في هذه الدنيا، حياة قاسية نرصدها بنظرة قاصرة لكن كيف يمكن للمرء أن يقطن مكانا لا يعرف الثبات؟ كيف يمكن للمرء أن ينسجم مع ما لا ينسجم معه؟ كيف يمكن للمرء أن يعيش الوهم لأطول فترة ممكنة؟

كانت العجوز تحب الأرز الأسود، وقد عرف باسم الأرز المحرم، حيث أنه قد حرم علي الشعب الصيني لفترة من الزمان وخصص للإمبراطور والأغنياء فقط، لكنه صار متاحا للجميع بعد ذلك، وقد كانت تنوع في طعامها، وكانت تتبع نمطا صحيا في الآونة الأخيرة من أجل أن يطول عمرها، حيث أنها كانت تلخبط في صغرها وكانت تعمد إلي الSAD أو ال Standard American Diet، وهو نظام مهلك كما تعلمون، فالطعام الأمريكي مدمر للصحة كما تدركون، وقد عمدت إلي نظام صحي في الآونة الأخيرة لتنظف جسدها من السموم، ولكن العمر لا يرحم، والرحيل ضرورة لا مفر منها.

وبالعودة إلي أمر الخيالات، فقد اتخذت شكلا جديدا، وأسبغ عليها طيف من الذكريات التي ولت ونسيت، وتشكلت بشكل هلامي اتخذ جدية تارة واتخذ هزلا تارة أخري.

وطبع عليها الشغف أحيانا ووصفت بالكسولة أحيانا أخري، وقد رأيت فيها من العجب ما لم أر مسبقا، وقد أحسست بأن نفسا أخري كانت تلاعبني لكن بشكل أكثر اختلافا، فاستشعرت أطرافا جديدة لتجربتي وأحسست بأن التجربة تعج بالهزلية أكثر من كونها تعج بالجدية.

ولو أنني قد تأرجحت بين الواقع والخيال، فإنني قد تأرجحت لأن مشكلتي صارت عويصة وقدرتي على حل المشكلة قد اضمحلت، ورغم ذلك تذكرت أن الوعي يضخم المشكلات باستمرار.

وعندما يفرغ من المشكلات الكبيرة يشكل الصغيرة ليحلها، وبعد أن ينتهي من أمر الصغيرة يعمد إلى الوساوس والأفكار البسيطة الخاصة بالتنظيم والترتيب على سبيل المثال.

ويبقي الشكل بهذه الصورة على الدوام، نعم، حلقة مفرغة من المشاكل الكبيرة والصغيرة والوساوس، وقد تكتشف في النهاية أنك قد نسيت المشكلة من الأساس، وحينها تضحك كثيرا من عبثيات الوعي البشري وتتساءل حيال أهمية اللحظات وجديتها وقدرتها على التأثير في التجربة بشكل فعال، وهو ما يثير السخرية في الأرجاء.

إن التجربة تتحول إلى ضرب من الخيال مع الوقت، فكثرة المشاهد تجعلك في حالة من اللخبطة، نعم، ولذلك ستجد كل إنسان يصف تجربته في النهاية بالتجربة الهزلية العشوائية أو بالقنطرة، ورغم ذلك هناك من تمر تجربته دون أن يسبغ عليها وصفا بأي شكل من الأشكال، فتمر بينما يشملها الصمت، نعم، صمت الإنسان الذي يخفي وراءه الكثير، وقد يكون الصمت المعبر الأكبر في الكثير من الحالات، ولهذا من الصعب التكهن بما يخفيه ويعبر عنه للأسف الشديد.

-٣٤-

كان المواء لا يعرف انقطاعا، كان مواء شديدا غريبا، استمر لفترة أطول، حل منتصف الليل كالعادة، وقد اتجهت إلى الشباك ووقفت أتأمل المشهد، وقد كان المشهد جذابا، فقد كثرت الهررة وكثر الناس، وكانت المشاركة من كل صوب وحدب، وقد شعرت بإحساس رائع، أحسست بنشوة، نشوة روحية، هل تعرفون النشوة الروحية، تلك النشوة التي لا تضاهيها نشوة؟

جلست أقرأ كتابا عن حقيقة أن الرداء لا يعبر عن الشخصية والتصرفات، فمن الممكن لامرأة ذات رداء خليع أن تكون ذات تصرف لائق ومن الممكن لامرأة ذات رداء ساتر أن تكون ذات تصرف خليع، ورغم ذلك يكون الأمر ممتازا إذا توافر الطيب من الأمرين في المرأة، الرداء والسلوك، وهو أمر ليس باليسير، لكنه موجود بشكل من الأشكال، ورغم ذلك لا يوجد كمال.

لا يمكن للمرأة أن تضبط ملبسها في كل مرة تخرج فيها، كما أن هناك أمما تسير مغطاة وأخري تسير عرايا، والتعامل مع الموقف يختلف بين الأمم وفقا للتعود، كما أن ردة فعل الرجال حيال ما يرون يختلف، فالأمم المنفتحة تجعل رجالها في حالة من الاعتياد فلا يكون الالتفات واضحا، والأمم المنغلقة تجعل رجالها في حالة من الالتفات بشكل أكبر لعدم الاعتياد، ورغم ذلك لا يمكن التعميم.

كما أن التعري على الإنترنت جعل الاعتياد منتشرا بين الأمم كلها، وهو ما قلل من الإثارة، وجعل الأمر عاديا فضاعت اللذة الحقيقية،

ورغم ذلك يتمثل الصواب في تطبيق اللذة حيال الشريك فقط، وهو ما يمثل الصحيح، لكن الطمع النفسي عند البشر يأخذهم في دوامة تتلف أنفسهم في نهاية المسار، وهو ما يمكن رصده في الكثير من الحالات في حقيقة الأمر.

كان يتحدث بشكل موسع عن الرداء وتطوره، كما تحدث عن رداء الرجل والتطور الذي سيطر عليه ودرجة التعري الذكوري أيضا، وقد تنقل بين الأمم والثقافات والكثير من الفنون والمعارف التي خصت هذه الشعوب، وهو ما أدي إلي سريان الإثارة بين أجزاء العمل، لكن الإثارة كانت تفقد بين الحين والآخر، وهو ما لا يمكن التخلص منه في حقيقة الأمر، فبين صفحات الإثارة، توجد صفحات الملل، وهو أمر يمكن تطبيقه علي كل شيء في هذه الحياة، علي كل شيء في هذه الحياة، نعم، علي كل شيء في هذه الحياة، فالأمر أشبه بتعاقب الليل والنهار والاختلاف والتأرجح وتلك الحلقة التي يمكن تطبيقها علي كل شيء في هذا الوجود.

في الصباح، حلت الصحفية ضيفة على شقتي، وقد تضاجعنا بشراهة، وجلسنا بعدها نتحدث عن الكثير من الأمور، وكان الحديث دافئا للغاية، رغم أن متعة الأمر كانت ستصير أكبر لو كان الليل قد حل علينا وواكب لحظتنا، لكن الأمور لا تسير كما نريد على الدوام.

تحدثت عن حقيقة أن الحب يعج بالكثير من الاضطرابات النفسية، كما أن الكثير من المراهقين يتعرضون لصدمات نفسية، والأمر نفسه بالنسبة إلي المراهقات، لكن المراهقات أكثر تأثرا وأكثر اضطرابا في هذه الحالة، ورغم ذلك يحاول المجتمع أن يخبرنا بأن

العلاقات تحقق الاستقرار، لكنها في حقيقة الأمر ترضي الفضول بشكل ما، لكنها تصبح مصدرا للملل والصراع مع الوقت، ورغم ذلك من الضروري للمرء أن يسعي نحو بلوغ شريك يستقر معه في نهاية المطاف، حتي ولو كانت هناك صراعات، صراعات من النوع المقبول، النوع الذي يمكن تحمله جنبا إلي جنب مع المودة والرحمة، لأن الوجود قائم علي الصراع.

أخبرتها بأنني أتعجب لأمرها، فهي تعلم جيدا أنها لن تستقر معي ورغم ذلك تشاركني الحميمية بشكل ما، فسرعان ما تخبرني بأن الأمر بمثابة الخطأ وبأنها لن تكرره مجددا، كما أنها ستعاملني كصديق فقط منذ اللحظة، فضحكت كثيرا، وضحكت هي الأخرى.

لطالما سخرت من جنون الفتيات، إلا أن الفتيان مفعمون بالجنون أيضا، لكنهم أكثر قدرة على الإخفاء. لقد شعرت لتوي كأنني مراهق لعين، وها أنا قد عدت لرشدي، وأخبرتها بأنني رجل عاقل كبير، ووضحت لها أنني لن أقع في مصيدتها مجددا، كما أنني سأتفرغ لأمر الظاهرة، نعم، أمر الظاهرة، فحسب.

ضحكت كثيرا، كانت الضحكات تتعالي في عنان السماء، وقد أخبرتني بأن أمر الظاهرة يمثل الأساس، وأن البحث عن حل من أجله بمثابة الخلاص، ولو أننا قد تكاسلنا في الفترة الماضية، فإن وقت الكسل قد فات، وحل وقت الجد والنشاط.

اتفقت معها ودعمت كلماتها، ونزلنا إلى الشارع من أجل طرح الأسئلة على أبناء الحي الكثيرين والمثيرين للريبة والشكوك، وقد

كنت أتنقل بينهم كالمجنون راغبا في الوصول إلى حلول، حلول تنهي الأمر وتجعلنا نصل إلى بر الأمان، بر الاستقرار والأمان، بر الاستقرار والأمان الذي يحلم به كل إنسان منذ بدء الزمان.

الأزواج يتحولون إلي أصدقاء، الحب اضطراب نفسي، الفيلسوف شخص خرج من تحت اللحاف أما التقليدي شخص عاجز عن الهروب من تحته، تأثير ظاهرة كوليدج علي عقول الذكور والإناث، صوص تروف الهائل، شطة لابويو، تتبع علاقات الذكور والإناث قبل الزواج خطأ كبير، رجل كان يبحث في ماضي الرجال والنساء قبل الزواج وقد قتل علي يد امرأة كان يستجوبها في نهاية المطاف، الرحمة الإلهية والأفعال الطيبة مفتاح دخول الجنة، رجل يزور محل شوكولاتة فاخر ويعود إلي المنزل ليكتشف أن الرجل قد منحه جرامات أقل من الجرامات الصحيحة، امرأة تسأل رجلا عن علاقاته السابقة في إصرار، رجل لم يعرف امرأة قط، امرأة لم تعرف رجلا قط، رجل مكسيكي ينزل بالمكسيكيين إلي الهلاك بينما يصفقون من أجله، رجل مكسيكي يبني سيركا ذا حلزونات، الدنيا حلزونات كثيرة وأفكار عديدة، رجل يلتقط لنفسه سيلفي مع عالم معروف ليخبر الجميع عن روعة عقله القادر علي مصاحبة عقل العالم رغم أن العالم قد صار يخرف في الآونة الأخيرة، الفنانة بينلوبي كروز تكشف عن نهديها وتضع قطا عجوزا بينهما، مارلون براندو كان يعاني من نوبات شرسة، الأغنياء يحولون أموالهم إلي مبان وحجارة ويجوعون أبناءهم، رجل اشتري الكثير من الشوكولا ووزعها علي الحي، فتاة إيطالية تسير بالبكيني بينما يحاول زوجها أن يغطي المنحنيات، عربيد يفقد أيره في حادثة مخيفة، رجل أفني عمره في جمع المال وسقط في بالوعة في نهاية المطاف، امرأة تتحدث عن التقوي بينما تجلس عارية، رجل يشرب الخمر ويعطي الناس الكثير من النصائح، شيخ يصلي بالناس ثم يروج لمحله، شيخ يخبر الناس أنه ملاك ويصدقونه، رجل فقد حياته بينما كان يكافح

في عمله، رجل أفني عمره في الجري وراء كرة، قط عجوز يضحك ويسخر من البشر، حروب وصراعات بين أمم فانية بالية، البشر في مأزق، الإنسان كائن مركزي مغرور، الطلاب في طب ينادون بعضهم بدكتور منذ السنة الأولي، شاب في السنة الأولي بكلية الإعلام يصف نفسه بالمخرج وآخر يصف نفسه بالصحفي، العجلة والاستعجال، الطموح البشري، النهاية متمثلة في الرحيل، مستقبل الإنسان رحيله، الجسر يكتظ بالكثير من المغفلين، البشر ينتظرون ما لا يفهمون، الإنسان كائن غريب، الإنسان كائن عجول جهول ظلوم كفور، اجعل حبك خفيفا و لا تثقل محبوبك بأمورك، واطلب سرعة المرور، وكل إنسان في عزلة حتي ولو اتصل بالآخر. ما تحبه سيدمرك في النهاية، الخمور والسجائر والأدوية النفسية تضعف القدرة الجنسية، النشاط الجنسي التقليدي يتضمن خضوعا أنثويا وسيطرة ذكورية، الإحساس بالاستقرار علي الجسر ضرب من الوهم، النشاط الجنسي الزائد عن اللزوم تعويض عن نقص داخلي، الجلوس مع المهووسين بالمناصب والمسميات يسبب الخنقة، كما أنهم لا يعيشون بطريقة سليمة، من يجري وراء النساء لن يشبع وسيكون الأكثر جوعا بشكل دائم، الإنسان ترس وليس بعجلة.

كلها أفكار كانت تلاعبني بلا هوادة، كلها أُفكار كانت تهاجمني بلا توقف، كلها أفكار أنهكتني وأخذت من رصيدي الفكري وتأرجحت بي كما يتأرجح الحبيب ممسكا بحبيبته وسيطرت على ذهني حتى جعلته عبدا لها وأخذتني إلى صحراء لا مناص منها وأكلت روحي حتى صرت خشبيا، وكم من رجل تعرض لذلك وكم من رجل تأرجحت به أفكاره حتى نالت منه، أفكاره التي لازمته في لحظات نجاحه وفي لحظات فشله.

إنه جسر أيها السادة، إنه جسر أيها السادة.

حل منتصف الليل، كانت الفتاة تلاعبني وكنت ألاعبها، كانت تمطيني، كان امتطاء ذا نشوة لم أر لها مثيلا من قبل، كانت كاوجيرل من العيار الثقيل، كانت رهيبة، كانت عجيبة، وقد أخبرتني بأنها ستغادرني غدا، ستغادرني بلا رجعة، فحزنت حزنا جما، وأخبرتها بأنني سأفتقدها حتما.

بعد المضاجعة، نزلت إلى الشارع ولم أرها بعدها قط، اختفت، تبخرت، هكذا هو الحال مع الكثير من الأناس والأشياء والأمور في حيواتنا، ولا مهرب من ذلك.

نزلت إلى الشارع كالمجنون، كنت باسم الثغر، شعرت بخفة، كنت أتنقل بين الأناس دون توقف، كنت أشبه بالمجنون المبتسم، ذلك المجنون الذي يعجز عن التعبير عن عواطفه بشكل واضح جلي، كنت مغيبا واهما ساذجا، كنت أعتقد أنني قد وصلت لكنني لم أصل إلى شيء، نعم، فكل ما فعلته في حياتي لم يرض رغباتي ولم يشبع ما بداخلي، وهو الحال مع كل إنسان، لكن الرضا عندما يبلغ يصبح الأمر خلابا مميزا، نعم، يصبح الأمر خلابا مميزا.

عندما عدت إلى الشقة، نالت مني حالة لم أفهمها، كانت أشبه بالصرع أو شيء من هذا القبيل، لا أعرف، ربما يعجز وصفي عن إدراكها وتقديمها على طبق واضح المعالم، لكن ما أعرفه، هو أنني قد دخلت في حالة من الهلوسات التي لا تحصي، وقد كانت تضم مشاهد قديمة مكررة ومشاهد غريبة ومشاهد معقدة لا تفهم، وها هي أمامكم

أحاول أن أقدم لكم بعضها، أحاول أن أقدم لكم ما يمكن أن يقدم منها، أحاول بشتى الطرق.

الجزء الرابع
هلوسات مكررة

-٣٧-

سمعت صريرا في الأرضية، كان غريبا للغاية، كان صريرا عجيبا مضطربا لم يعرف استقرارا، ارتجفت ولم أر شيئا واضحا، تجاهلت، وعدت إلى نومي العميق، لكن الصوت قد عاد، وها هو يؤرقني ويقطع نومي ويبعد عني لذته التي لا تقارن.

تملكني خوف رهيب، شعرت بأن هناك ما يلاعبني ويرغب في طمس راحتي، لكنني تجاهلت مجددا وعدت إلى نومي. إلا أن الصوت ظل يلاحقني في الليلة التالية، وكان لا يعرف توقفا.

أشعلت مصباح الغرفة، جلست أتأمل المشهد حولي، وقد فوجئت بالعجوز تتأملني في منتصف الليل، بينما كان المواء يلاعب الأجواء في الخارج، وقد شعرت بقشعريرة شديدة وخفت من وجهها الدميم، ونال مني اضطراب لم ينل مني مثله قط.

كانت تمسك بمصباح غريب، كان قوطي الهيئة قديم الطراز يهيمن عليه التراب بشكل واضح، وقد اقتربت مني وأخبرتني بأنها تحمل المعرفة من أجلي لكن المعرفة قد غطت بالرماد وقد صارت مزيفة لا تفيد ولا تقدم أي جديد، كما أنها قد تعرضت إلى التجاهل من قبل الكثيرين، ومن اهتموا بها صاروا قلة، وقد عرفوا بجماعة النيردات، تلك الجماعة التي لم تهتم سوي بالدرجات.

نال مني خوف شديد، ففي صغري، كنت أحلم كثيرا بحلم يشبه ما أراه أمامي، إلا إنني في هذه المرة أعيش الواقع لا الحلم، فقد تحقق، وقد تحقق بشكل أكثر إرهاقا وأكثر غرابة.

كنت أحلم بجدتي في صغري، كنت أحلم بها وهي تصعد السلم بينما كانت الكهرباء منقطعة عن المنزل، لكن جدتي كانت جميلة طيبة حنونة، أما هذه المرأة العجوز، فيوجد بها النقيض ولا تقدم سوي كل ما يخيف ويرهق الأعصاب، وبالعودة إلي الحلم، فإنه كان يقدم الجدة بينما كانت تصعد السلم كما قلت مسبقا، وكانت تحمل مصباحا شبيها بذلك المصباح، وكانت تلج الغرفة، فأشعر بالفزع بسبب الدخول الفجائي في كل مرة، لكن الواقع الذي أراه أمامي يمثل رعبا وخوفا وكرها واضطرابا، لأنني لا أعرف كيف ولجت العجوز الغرفة وكيف تمكنت من الاقتراب مني بهذه الصورة التي لا أفهمها.

إن المرأة العجوز قد حلت على محل غير محلها، وقد ولجت غرفة لا تناسبها، ووجودها أمامي لا يناسب الوقت والمكان، وبهذه الصورة، يصبح الترحيب بها أمرا بعيدا كل البعد عن الذهن التقليدي.

لقد اختفت بغتة، لكنها عادت مجددا في الليلة الجديدة، كانت تحمل نفس المصباح، اقتربت مني، كان المواء يلاعب البيئة الخارجية كالمعتاد، وقد طال هذه المرة، وقد حاولت الانسجام فعجزت، وقد اقتربت المرأة وقذفت المصباح في وجهي، فنالت منه بعض الحروق، وقد أسرعت بالنزول إلي الأسفل، ووصلت إلي المستشفى في عجلة من أمري، نلت ما كان مناسبا بالنسبة إلي، وعندما عدت، وجدتها تقف أمام الباب، فسألتني عن سر ما حدث لي،

فضحكت وأخبرتها بأنها قد مثلت السبب، فتعجبت لأمري، وأخبرتني بأنها كانت في سفر قصير، وقد عادت لتوها، فنال الفزع مني وأخبرتها بأنها امرأة لعوب خبيثة عجوز ماكرة، فغضبت بشدة، وأقسمت بأنها قد عادت لتوها من السفر، أقسمت وكررت قسمها وصممت علي كلماتها، فشككت في عقلي وأحسست بأن هناك مشكلة بي.

في الليلة الجديدة، جاءتني العجوز حاملة المصباح نفسه، كان المواء شديدا، كان لا يعرف انقطاعا، أحسست بأن الصوت قد نال مني فأرهق بيئتي الداخلية وأشعرني بصغر حجمي، لكن تركيزي كان منصبا علي العجوز، تلك العجوز التي اقتربت وأخبرتني بأنها لن تتركني حتي تنشر الفزع بداخلي كي تعلمني درسا لم أفهمه وكي تخبرني بأمور استعصت علي مخيلتي، أمسكت بوجهها وأزلت قناعها فظهر وجه الشابة اللعوب، لكنني قد أزلت القناع بعد أن تحسست نهدها وأدركت أنه كان يافعا، بعد أن أدركت أن ما لمست لم يخص عجوزا لكنه خص شابة صغيرة، وقد تحققت ووصلت، وقد ضحكت الفتاة كثيرا وأخبرتني بأنها كانت تلاعبني، لكنني عندما أمسكت بوجهها مجددا لم أجدها، فقد انفلتت واختفت، تلاشت كما يتلاشى الجسد بعد أن يدفن في معظم الأحيان.

وقد رأيت نفسي في ساحة كبيرة لم أعرف من أين جاءت، وجدت الكثير من الجثث، وجدت الكثير من الجماجم، وقد ارتفع صوت وأخبرني بأن كل هذه الجماجم خصت أناسا طماعين، كانت أحلامهم لا تعرف حدودا، كانوا يريدون المزيد باستمرار. لم تتوقف رغباتهم قط، رغباتهم الشهوانية المفعمة بالغرور.

وقد غادرت الساحة فوجدت نفسي مجددا بداخل غرفتي، وكانت هناك الكثير من الأصوات تلاعبني، أحسست وكأنني صرت أسيرا لحالة من الشيزوفرينيا، لكنني سرعان ما عدت إلى ذهني، وأخبرت نفسي بأنني أكبر الأمور وأضخم ما لا يجب أن يضخم، وقد أحسست بأن المخيلة البشرية موضع تضخيم، نعم، إنها تضخم كل شيء،

تضخم اللذة وتضخم المعاناة، لكن الواقع يخبرنا بالحقيقة، تلك الحقيقة التي لا مناص من بلوغها.

إن العجوز واللعوب محل خيالاتي وأوهامي، ولكن هناك نقطة إيجابية فيما يخص هذه الحالة، تلك النقطة التي تتمثل في إدراكي للموقف، تلك النقطة التي تتجسد عبر قدرتي على إدراك الخيالات وماهيتها، وهو ما يعد أمرا إيجابيا بشكل ما.

استسلمت إلى بكاء شديد، ارتعدت فرائصي، كنت أغطي عيناي بكلتا اليدين، كانت أجهش، كنت أستسلم إلى بكاء رهيب، كنت أسيرا لبيئة صغيرة محدودة، بيئة باغتتني رغم اتساع عقلي، وهو ما علمني درسا لا يمكنني أن أنساه، فقد تعلمت درسا في الغرور، تعلمت أن العقل مهما اتسع معرض للقصور، وهو ما أفادني كثيرا في حقيقة الأمر، على المستوي الفكري قبل كل شيء.

إن الخوف الذي نال مني، كان نابعا من عجزي عن مسايرة البيئة التي حوطتني وشملت حياتي في هذه الفترة، وقد أدركت أن الإنسان عرضة للكثير من المتغيرات وأن الأقوى هو الأكثر قدرة على التكيف مع التغير، فالمتكيف قادر علي التقدم إلى الأمام، وقد رأيت قطة صغيرة تعرج في يوم من الأيام، إلا إنها كانت مصممة على التحرك إلى الأمام والبحث عن الطعام.

التكيف، التكيف، نعم، إن حرب الإنسان الكبرى متمثلة في القدرة على التكيف، وهي قدرة تكتسب مع الوقت وتتطور، لأنها إن ركدت تلاشت، ولهذا من الضروري أن تدعم باستمرار وأن تكون محل تركيز من قبل كل إنسان، فالتكيف مع التغير أمر محوري للغاية، وكثيرا ما وضحت في كتاباتي المتواضعة أن التكيف يبني نفسا سهلة، يبني نفسا أكثر قدرة على العبور بليونة، بالطبع، لا يمكن أن يخلو الطريق من الصعوبات، لكن من الممكن أن تساعد العقلية المتكيفة صاحبها على التأقلم والمرور بصورة أفضل وأسرع وأكثر مرونة وحنكة.

وجدت نفسي ممددا فوق منضدة حديدية ضخمة، وقد وجدت اللعوب ممددة إلى جانبي مبتسمة، كانت عارية وكنت عاريا، وقد جاءتنا العجوز وكانت تحمل مشرطا وأدوات عديدة في حقيبة غريبة، كانت ترتدي ما يشبه رداء الجراحين، وقد أمسكت بنا بينما كنا مقيدين بشكل غريب، كنا عاجزين عن النهوض بشكل عجيب، وقد أخبرتنا بأن الأعضاء الذكورية والأنثوية لا تتعدي كونها قطعا من اللحم، وقد ضحكت كثيرا وبترت أجزاء عديدة من جسدينا، ورغم ذلك، كان الوعي موجودا، فلماذا لم يغب؟ ولماذا لم نتلاش؟

إنه لأمر عجيب أن يتعرض الوعي إلى هذه الصورة ورغم ذلك لا يفقد! إنه لأمر عجيب أن نبقي دون تغير وألا نتعرض إلى تأثير صادم، وقد استيقظت من نومي، فوجدت أنني سليم ولم أجد الفتاة بطبيعة الحال، تلك الفتاة التي اختفت وصعدت روحها إلى السماء، لكنها رغم ذلك مصممة على مطاردتي والنيل مني في مخيلتي.

-٤٠-

بينما كنت متعمقا في التنقل بين الكلمات، وجدت العجوز تجلس أمامي فجأة، وجدتها بداخل غرفتي، فتراجعت إلي الوراء، وقد تحولت إلي اللعوب بصورة غريبة، وكانت ترقص من أجلي دون توقف، كنت أكل الأجنحة مدعومة بالجبنة الزرقاء بينما كانت ترقص من أجلي مرتدية بدلة رقص حمراء قصيرة للغاية، وكنت منسجما مع الحركات، ففي الرقص يوجد فن، لكنه فن غير مباح، كما تعلمون، فهناك أنواع مباحة وهناك أنواع غير مباحة، كما هو الحال مع كل شيء في هذه الدنيا، وقد يقدم الناس علي فعل غير المباح رغم علمهم بأنه غير مباح، لأسباب دنيوية خالصة للأسف الشديد.

إنها حالة من الهلوسات على ما يبدو، فقد عدت إلى بيئتي وحيدا. كان سمت المجانين يعلوني، سمت المجانين الذين استهلكتهم أفكارهم فصاروا عرضة للتآكل والاندثار، لقد استنزفت طاقة الإنسان وأكل لحمه علنا دون أن يردع ما يحدث له، لقد تلاعبت به الشهوات وقتلت روحه، لقد أدت المثيرات الكثيرة إلى اختلاله وعدم استمتاعه بلحظته، طمعه وشغفه الأحمق واعتقاده بالخلود، كلها أمور زادت الطين بلة، فالوساوس والخيالات منبع الإرهاق، والإرهاق نال من الجميع.

كل إنسان يتخيل جمهوره الخاص، كل منا يري أن هناك جمهورا يصفق من أجله، رغم أن من يصفق من أجله، يتمثل في قليل من أفراد عائلته المقربين وقليل من الأصدقاء، أما البقية، فإنها منشغلة بأنفسها، وهو أمر لا يمكن تجاهله، فالأب يري أن ابنه أفضل من أبناء الآخرين، حتى ولو قدم أبناء الآخرين مجهودا أفضل، وفي الوقت

عينه، يري الابن أباه على أنه الأفضل رغم أنه لا يمثل سوي أب من الآباء، ولكن لا يسير الأمر بهذه الصورة على الدوام، إلا أن الذاتية والغريزة بمثابة الأمر الواضح بكل تأكيد.

إنني أتخيل أن هناك جمهورا ينتظر مني حل القضية، إنني أعتقد بأن الجمهور الخيالي سيصفق من أجلي حينما أفك شفرات الظاهرة، وفي الوقت عينه تلاعبني السيناريوهات الأخرى بين الفينة والأخرى، فلو عجزت عن الوصول، ستصبح ذاتي عرضة للسخرية والاستهزاء، ذاتي التي أحمل عبئها، ذاتي التي أتحرك لأوفر لها ما تريد، لكنها في حاجة إلي الكبت بين الحين والآخر، كما أنها في حاجة إلي أن تدرك أن الجمهور قد يكون وهميا في حقيقة الأمر، ومن الممكن أن يكون الجمهور نفسه غيورا، نعم، من الممكن أن يكون الجمهور غيورا، إن وجد في حقيقة الأمر، إن وجد، إن وجد، فكل منا منشغل بذاته، ذاته التي أنهكته وقضت عليه وجعلته أشبه بالأحمق اللعين.

لكن الحماقة درجات، فهناك أحمق يجيد السلكان، وهناك أحمق راكد، والمجتمع يحب الأحمق السالك، وهو ما لا يمكننا أن ننكره بكل تأكيد.

لقد سمعت أصوات المواء تدب في المكان، كانت شديدة، كما أنني قد سمعت خرخرة قريبة، فانتفضت من مكاني، فوجدت قطة تلاعبني، كانت تقترب مني، وقد تحدثت بصوت بشري خالص، وقالت: (توقف أيها اللعين عن التفلسف، إن البشر لا يحتاجون سوي

المال والغذاء والشهوات والهراء)، حينها لم أتمكن من التعامل مع الموقف، ففصل المخ الدائرة، وأصبت بالsyncope سريعا.

إنه vasovagal syncope، لا تقلقوا، إنها حالة من الإغماء الطبيعي والمنتشر، كل ما عليه فعله يتمثل في ضرورة أن ينال قسطا من الراحة، ورغم ذلك، من الممكن أن نجري المزيد من الفحوصات لاحقا من أجل الاطمئنان التام.

هكذا تحدث الطبيب، وقد غادر تاركا إياي في الغرفة مع بعض أبناء الحي الذين غادروا بمجرد مغادرته، لكنهم قد عرفوا بأمري بفعل العجوز على ما يبدو، العجوز الشقية التي تمثل محور خيالاتي وأوهامي.

استيقظت في منتصف نومي، تحركت باتجاه دورق الماء، وجدت أن نصفه قد فرغ، رغم أنني لم أشرب منه سوي رشفة، من شرب؟ كيف قل الماء بهذه الصورة؟ هل هناك من يجلس معي ولا أعرف عنه؟ هل هناك نفس تصاحبني غير نفسي؟

إن التأثير ببيئتي أمر أدركت مؤخرا أنه لا يخصني وحدي، فهناك مثيرات وهناك متغيرات وهناك أمور ماورائية، وهناك ما لا يفهم وهناك غموض كامن بين أبعاد التجربة، وقد تعجبت لأمر الدورق، تعجبت بشكل شديد، لأنني كنت على يقين بأن مستوي الماء لم يكن عند هذا المستوي، وهو ما أثار دهشتي وحيرني كثيرا، لكن النوم قد غلب وناداني، فعدت إليه مسرعا.

عدت إليه مسرعا، نعم، عدت إليه مسرعا.

جاءني حلم غريب، حلمت بأنني محاط بالكثير من النساء، كن يرقصن على الشاطئ، كن آسيويات، كن جميلات، كانت الحلاوة تشع منهن وكان البهاء يلاعب هيئاتهن، كن من الصين واليابان والفلبين وتايلاند وكوريا وماليزيا، كن يتبخترن كاشفات عن الأنوثة في قمتها والخضوع في زهوه والروعة في أوجها والحنكة في عمقها، نعم، لدي الخضوع الأنثوي زهو، نعم، فلا تتعجب مما أقول أيها القارئ العزيز، إنه زهو يقابله الاحترام، وبهذه الصورة تسير الأمور وتتحرك المجاديف إلى الأمام.

كان النخيل يزين الشاطئ، كانت الرؤية مشعة، وكانت الشمس تلاعبنا بشكل لا يخطر في البال، وقد اختلط اللون الذهبي لأشعة الشمس بالأجساد المرتدية للبكيني فلاعبت البيئة كيمياء دماغي وأحدثت نوعا من الشرارة التي لا توصف، فتحرك الأدرينالين وتلاعب الدوبامين وقدم السيرتونين عرضا مميزا.

كانت تجربة سخية، وقد استمرت الرقصات دون توقف، لكنني قد أحسست بالملل فغادرت، فكثرة التعرض تفقد الإحساس كما تعلمون، ولهذا وجب الحجب والعودة من جديد حينما يصبح العقل مستعدا للجولة الثانية.

استيقظت من النوم، فوجدت أن الدورق قد فرغ تماما، ضحكت كثيرا حتى كدت أن أصاب بالجنون من فرط ضحكاتي، شعرت بأن هناك نفسا أخري تسكن معي، نعم، يبدو أن هناك نفسا أخري تسكن غرفتي وتشاركني مشربي، وقد تشاركني كل شيء فيما

بعد، ربما أكون ملبوسا وربما أكون قد أصبت بالجنون بشكل فعلي، نعم، ربما أكون قد أصبت بالجنون بشكل تام.

-٤٢-

جاءتني العجوز، نال مني الأرق، جلست أحاورها عن الكثير من الأمور، بينما كان المواء مستمرا بشكل غريب، كان لا يعرف الانقطاع، وقد زادت مدته بشكل ملحوظ، وكان مزعجا بشكل كبير.

وجدتها قد تحولت إلى اللعوب، وقد قفزت باتجاهي وتخلصت مما لديها وشرعت في مضاجعتي حتى كدت أن أصاب بالإغماء من فرط شدتها وتلون حركاتها ودأب ملاعباتها، وكان المواء يصاحب أفعالها بصورة درامية موسيقية خلابة، وكأن الكوريوجرافي قد تعلم منها وكأنها كانت قنبلة فتاكة قادرة على نسف مدينة بأكملها بعد أن أغرتها بمفاتنها، وكأنها كانت أشبه بوردة قد منحت إياها لأكتشف فيما بعد أنني قد عجزت عن استنشاق عطرها بشكل مثمر، نعم، كانت مفاتنها أقوي من أن تدرك وكانت ملامحها أعظم من أن تحس، كانت كعنقود عنب قد فرط وطلب مني أن ألمه، إلا إنه كان عنقودا طويلا، كان طويلا للغاية، فعجزت عن جمع حباته.

كان المواء لا يعرف انقطاعا، كان صاخبا هذه المرة، وقد عادت اللعوب إلى صورتها الأخرى، فوجدتها قد اتخذت هيئة العجوز وجلست تحدثني وكأننا لم نكن نفعل أي شيء بأي شكل من الأشكال، كانت غريبة عجيبة، كانت تتحدث دون توقف، وقد فزعت لما رأيت، ونالت مني مشاعر مفعمة باللخبطة والهياج، إلا إنني كنت أبرر ما يحدث معتمدا علي أمر الخيالات، لكن أمر الخيالات شأنه مختلف بين الأناس، فربما يكون ما رأيت واقعيا وربما يكون خياليا، لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، لكن ما أعرفه حقا يتمثل في

حقيقة أن كل البشر يصلون إلي مرحلة معينة في سن محددة، مرحلة معينة أطلق عليها اسم مرحلة الغموض، مرحلة التأقلم مع الغموض، علي وجه التحديد، وحينها تستمر القصة رغم العجز عن التعامل مع الغموض، ورغم ذلك قد يكون الغموض بمثابة المحرك بالنسبة إلي الكثيرين، وكلما كنت قادرا علي مواكبة الغموض والقلق، كنت أكثر قدرة علي التقدم إلي الأمام بقوة وفي ثبات.

-٤٣-

في حقيقة الأمر، لا يوجد أثر للفتاة ولا يوجد أثر للعجوز، وقد رحلت الصحفية أيضا، فلم يبق لي من يسليني ويؤنس وحشتي ويجاري كلماتي ويشعرني بالدفء العاطفي، وقد صرت أسيرا لوحدة لم أفلت منها، وعجزت عن الوصول إلى حل قاطع فيما يخص التعامل مع الأناس، فخضعت وأوقفت عقلي قدر الإمكان، إلا أن بعض الأفكار كانت تلاعبني بين الحين والآخر.

انتهت قصة الفتاة تماما كما تعلمون، وانتهت قصة العجوز بشكل كلي، وانتهت قصة الصحفية أيضا، انتهى كل شيء، نعم، انتهى كل شيء.

لا مهرب من النهايات، لا مناص من حلول النهايات، لا مفر من بلوغ المفاتيح وإغلاق الأبواب بدلا من فتح المزيد، فلكل شيء نهاية، وكل نهاية متصلة بحكاية، وقد نشهد بعض النهايات أمامنا، بينما تسري أخري بعيدا عنا، ولو أن المرء قد أدرك كل شيء، لأصيب بالجنون، فالعقل البشري، كما تعلمون، ذو حدود لا مفر منها، وذو قيود تلاحق أكثر العقليات انفتاحا، فالانفتاح التام يخرج الوساوس، والوساوس أشد ضررا مقارنة بالقيود، وهو ما يعني أننا قد حبسنا في جرة، وأن هذه الجرة لا تمثل سوي محلنا الطبيعي في هذا الوجود، ومن يحاول أن يعيش بطبيعة لا تناسبه مغفل، نعم، من يرفض طبيعته ساذج، والإنسان بارع في ذلك، كما أنه يكرر سذاجته بشكل دائم، بشكل دائم، بشكل دائم.

إنه لأمر محزن أن يكون الأمر بهذه الصورة بعد كل هذا السعي، إنه لأمر مخيف أن نحوط بالغموض ونجبر على التعامل معه بينما نعبر الجسر، إنه لأمر محير أن يسير المرء جنبا إلى جنب مع الغموض دون مهرب، كما أنه مطالب بأن يصاحبه ويتكيف معه دون أن يرضي فضوله، ورغم ذلك قد يمثل إرضاء الفضول تمام التجربة كما تعلمون.

الجزء الخامس
النهاية

-٤٤-

تسلل ضوء القمر عبر الشباك إلي العينين، فتسرب جماله إلى الفؤاد، وتحرك الوجدان، وتزعزع الاستقرار، وثارت الكثير من العواطف الجياشة بداخلي، وأحسست بأن الاستيقاظ من نومي قد صار واجبا، فقمت من مضجعي، وتحركت مسرعا، ونزلت متجها إلى الشارع.

وجدت الهررة في كل مكان، وجدت الناس في كل مكان، كانت الهررة تضحك دون توقف، كانت تسخر منا، كانت تغمض الأعين وتقهقه، وكأنها كانت تقول (انظروا إلى هؤلاء السذج، انظروا إلى هؤلاء السذج).

لطالما أشفقت علي البشر، وأنا منهم، فما نحن فيه ناجم عن تمردنا وغرورنا، وكي نتخلص لا مناص من أن نتطهر وأن نتحلل، والتحلل يتمثل في الاستغناء الإجباري مع الوقت والتعرض إلى التطهير والتنقية التامة، وبالفعل ستتحقق رغبات وستكبت رغبات أخري، وهكذا هو الحال مع الجميع.

إن العودة إلى الصورة الحيوانية تمثل النهاية، والطعام يقود الحركة عند البشر، والوعد بالطعام والأنعام مذكور في العالم الآخر، أما التفكير، فإنه نوع من التمرد وضرب من الغرور، ولهذا قررت أن أنزل إلى الشارع كي أشاركهم أفعالهم، قررت أن أتخلص من الغرور، قررت أن أعمد إلى الحياة البسيطة وأن أريح ذهني القاصر، فما نحن إلا تروس، ومن ظن نفسه العجلة، فقد هلك.

كنا نتحرك في جماعات، كان القمر يزين البيئة، كان الليل حالكا، لكن القمر أضاء ليلتنا، وكنا نسير في طاعة وانسجام، وقد كان الانسجام مذهلا، كان رائعا، كان جذابا، كان خلابا.

وإذ بغتة، يقف قط عجوز أمامنا، يلتفت إلينا، يكشف عن ثغر يتفتح كأقحوانة، تلمع عيناه، تسيل الدموع على خديه، ويقول (أخيرا فهمتم أيها اللعناء، أخيرا تقبلتم حقيقتكم أيها اللعناء)، ثم ينصرف بعيدا عنا.

يصاب الناس بالحيرة، يشعرون وكأنهم في حلم سوريالي غريب، يستمر المواء في التعالي، يتجاوب أصداؤه في أركان الوجود، يتسلل إلى كل حدب وصوب، ينخر كل مكان، ويهيمن على كل الأبعاد والمساحات دون حدود، دون فواصل، دون معوقات.

ألتفت إلى الوراء، تقترب الكاميرا من وجهي، أتحدث بكلمات غير مفهومة، إلا أن هناك جملة واحدة تخرج مني فتترجم ذبذباتها إلي أمر مفهوم، أقول، (كم كنا حمقي حينما ظننا يوما أننا قد مثلنا العجلة، فقد كنا مجموعة من التروس لا أكثر ولا أقل، نعم، كنا جميعا مجموعة من التروس، لا أكثر ولا أٍقل).

القمر يخيم على المشهد، المواء يستمر في الارتفاع، السواد يخيم على كل شيء، وتنتهي القصة، لتبدأ قصة أخري في حي آخر.

(تمت)

- العمل من وحي الخيال بشكل تام
- يتضمن العمل مشاهد صادمة في بعض الأحيان وتم التنبيه إليها منذ البداية
- العمل لا يعبر عن رؤية الكاتب الخاصة بالإنسان والحياة
- العمل ضرب من الخيالات ويشمله الأسلوب السوريالي بشكل واضح
- كل ما تم عرضه لا يتصل بالكاتب
- إصدار ٢٠٢٤



رواية
مواء منتصف الليل

الكاتب والمؤلف: معتز عرفان

عضو لجنة الإعلام ومنتج الميديا ب
GSSP & GPTS

مترجم أربعة أجزاء من سلسلة كوارث كبري
وأفلام أخري على قناة الوثائقية

مؤلف كتاب الإيروسية والثاناتوسية وأعمال أخري

مؤلف رواية السيرك وأعمال أخري

بكالوريوس الإعلام .. ويدرس الماجستير
جامعة الدول العربية .. كلية الإعلام .. AAST
جامعة أوتونوما ببرشلونة UAB

دار عرفان للنشر